حبيب جاماتى

خفايا القصور

سلسلة من حوادث التاريخ الخفية
مفرغة فى قالب قصصى

عنيت بنشره
ادارة الهلال بمصر
سنة ١٩٣٦

خفايا القصور

سلسلة من حوادث التاريخ الخفية

مفرغة فى قالب قصصى



تمثال الزباء



تمثال تحوتمس ، ١٤٠ ت



كليوبطرا ملكة مصر



الملكة نفرتيتي



محمد علي باشا الكبير



الامبراطور فرنسوا جوزيف الاول



الخليفة عبد المجيد



النسر الصغير : نابليون الثاني



نابليون الاول

خفايا القصور

تأليف

حبيب جاماتي

[illegible]

[illegible]

[illegible]

اهداء

لقد أمدني شيخ العروبة احمد زكي باشا ، رحمه الله ، بكثير من موضوعات هذا الكتاب

ووجدت في مكتبة المرحوم شارل جلياردو بك ، مؤسس متحف بونابرت بالقاهرة ، ينبوعاً زاخراً اغترفت منه ما كنت في حاجة اليه من تفاصيل لوضع هذه الاقاصيص التاريخية

وقد انتقل الاول الى جوار ربه تاركا مصنفات لم يفكر أحد بعد فى طبعها ، وفي إهمالها خسارة كبيرة على مصر والعالم الاسلامي

ومات الثانى قبل أن يقطف ثمرة جهاده في سبيل مصر والشرق ، ونقلت محتويات متحف بونابرت الذي أسسه بالقاهرة الى فرنسا بأمر من الحكومة المصرية ، التي فقدت بعملها هذا ثروة تاريخية وأدبية لا تعوض

فالى روح العالم المصرى احمد زكى باشا

والى روح العالم الفرنسي شارل جلياردو بك

اهدى هذه المجموعة من الأقاصيص التاريخية ، الى يعود اليهما الفضل الاكبر في وضعها واذاعتها

وعلى الروحين الطاهرتين الرحمة !

ح . ج

مقدمة

ان هذه المجموعة التي أقدمها اليوم الى القراء هي الحلقة الثالثة من سلسلة الاقاصيص التي أنشرها من سنوات بعنوان « تاريخ ما أهمله التاريخ » وقد سبقتها مجموعتان :

« الضحايا » التي تولت طبعها شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده و « ابراهيم في الميدان » التي أصدرتها دار الهلال في العام الماضي

وقد اخترت لهذه المجموعة الثالثة اسم « خفايا القصور » لأنني ضمنتها أقاصيص غرامية وسياسية واجتماعية وقعت حوادثها في قصور السلاطين والملوك والامراء ، في مختلف عصور التاريخ

ولا يسعني الا أن أكرر هنا ما قلته غير مرة ، رداً على أسئلة القراء عن مبلغ الحقيقة التاريخية في هذه الاقاصيص ، فاقول :

« ان كل قصة من أقاصيص « تاريخ ما اهمله التاريخ » قائمة على حقيقة تاريخية واقعة ، ولكنني استعنت بالخيال في وضع التفاصيل ، بقدر ما يسمح لي الفن القصصي بذلك »

فان ما أضعه بين يدي القارىء ليس بحثاً تاريخياً ، وليس قصة خيالية ، بل هو مزيج من الاثنين معاً

فالقارىء يجد فيه فائدة ، ويجد فيه تسلية

وهذا جل ما أرجوه وأرغب فيه

وأملي أن أكون قد وفقت في خدمة التاريخ والادب من هذا السبيل

حبيب جاماتي

القاهرة مارس ١٩٣٦ ــ ذو الحجة ١٣٥٤

الراقصة المتوجة

بدا قصر فرعون في ذلك اليوم البهيج في حلة من الزينة تبهر الابصار، وتأخذ بالالباب، وخرج الشعب الى الشوارع والميادين ، واحاط بالقصر الملكي ينظر الى الحراس الكثيرين، وقد تفرقوا على الابواب. ويصغى من بعيد الى الالحان العذبة والانغام الشجية المتصاعدة من من وراء الجدران العالية ، وينثر الازهار ويلوح بالرياحين كلما اخترق صفوفه كاهن من الكهنة ، أو عظيم من العظماء ، أو قائد من القواد ، في طريقه الى المقر الملكى ، حيث أقام فرعون حفلة سمر وطرب ، دعا اليها رجال مملكته الامناء ، وأصحاب الرأى النافذ فيها

وتربع امنحوتب الرابع في سريره الذهبي المرصع بالحجارة الكريمة. وأحاط به المدعوون احاطة السوار بالمعصم ، بينما المغنون يطربون الملك بأناشيدهم الجميلة ، طالبين من آمون أن يطيل ملكه ويزيده مجداً على مجد وجاهاً على جاه

وجلست بجانب الملك أمه النبيلة الذكية المسموعة الكلمة ، الملكة تى زوجة أمنحوتب الثالث العظيم ، القوى الشجاع ، الذى لم يطلق في حياته من القوس سهماً طائشاً ، والذى روع الجيوش في الميادين والسباع في الغابات ، فدون اسمه فى التاريخ كامهر صياد عرفه الناس قديما وحديثاً ، وقتل في الصحارى والادغال والهضاب مائة واثنى عشر أسداً في عشر سنوات ، فضلا عن الذئاب والفهود والثعالب والصقور !

وكان ابنه امنحوتب الرابع يطيل النفس بالسير على منهاج أبيه في تدويخ الممالك واخضاع الشعوب ، ولكن بطريقة غير التى عمد اليها

أبوه ، وبسلاح غير الذي كان فرعون العظيم يشهره في وجه أعدائه كان امنحوتب الثالث يخضع أعداءه بنصال السيوف وأسنة الرماح وسهام الاقواس . أما امنحوتب الرابع ، فقد فكر في اخضاعها بواسطة دين جديد وعقائد مبتكرة تقوم على أنقاض الدين القديم والعقائد البالية

وهو الذي قوض سلطة الكهنة فيما بعد وهجر معابد آمون ، وأقام لآتون معابد جديدة ، فحمل منذ ذلك الوقت اسم اخناتون بدلا من أمنحوتب

أما تلك الحفلة التي كان يحييها ، والتي دعا اليها الرجال البارزين في مملكته ، فقد أعدها لاستقبال رسول دشراته ، أحد ملوك سوريا

أرادت الملكة تي ، ام الملك امنحوتب، أن يتخذ ابنها زوجة له من بنات الملوك التابعين له الخاضعين لتاجه ، وكانت ترمي بذلك الى ضمان خضوع تلك الشعوب البعيدة ، التي كانت كلما سنحت لها الفرصة تشق عصا الطاعة على فرعون وتمسك عن دفع الجزية

وكان للملك دشراته ابنة فاتنة الحسن ذاع صيتها في الاقطار شرقاً وغرباً ، فأرادت الملكة أن يتزوج ابنها بتلك الفتاة الجميلة ، وبعثت الى الملك دشراته تنبئه بذلك ، فأجابها الى طلبها ، وأوفد رسوله الى فرعون يحمل اليه الهدايا ويقطع له عهداً باسم سيده دشراته بأن تكون ابنته « تادوو » زوجة لامنحوتب وملكة على مصر

* * *

أفضى الرسول الى فرعون بمضمون رسالته ، ووضع بين يديه الهدايا التي عهد اليه سيده في حملها إلى مصر ، فقبلها امنحوتب مبتسما شاكراً ، وأمر حجابه بأن ينزلوا الرسول وصحبه ضيوفاً مكرمين في قصره ، ودعا الرجل الى أخذ مكانه بين الحاضرين ، وأشار الى رئيس

« التشريفات » بادخال الراقصات

فدخلن ، وكن عشراً تليهن عشرات فعشرات . . وجعلن يعرضن على الملك وحاشيته وضيوفه آخر ما وصل اليه فن الرقص في ذلك الوقت من سحر وابداع . ثم خرجن الواحدة بعد الاخرى ، وبقيت منهن راقصة أرادت أن ترقص أمام الملك بمفردها ، بعد أن كانت تشرف على زميلاتها ، وتدير حركاتهن ، وتقضي بدخولهن وانصرافهن من حضرة فرعون

وبينما أنظار جميع من حضروا ذلك المجلس متجهة الى تلك الراقصة البارعة الجميلة ، وقد أخذوا بحسنها وخفتها ومهارتها ، أشار فرعون الى أحد حجابه الامناء ، فاقترب الحاجب من العرش ، وهمس امنحوتب في أذنه :

— جئني بهذه الراقصة بعد انصراف المدعوين !

مثلت الراقصة بين يدي فرعون ، خائفة مرتعدة ، ظناً منها أن الملك غاضب عليها وأن رقصها ورقص زميلاتها لم ينل حظوة في عينيه

ولكن الملك كان يبتسم ، وجعل يخاطبها بلهجة أعادت الطمأنينة الى نفسها المضطربة ، فأدركت أن مخاوفها لم تكن في محلها ، وان فرعون العظيم لم يبعث في طلبها إلا لانه يريد بها خيراً

وسألها ببشاشة ولطف :

— لم أرك قبل الآن بين الراقصات في القصر . هل قضيت زمناً طويلا هنا ؟

— قضيت بضعة أشهر يا مولاي

— أتحبين الرقص ؟

— احبه الى حد الجنون . وقد رغبت فيه ومارسته بالرغم من أن البيئة التي انتمي اليها لا يسمح فيها للبنات بمزاولة هذا الفن الجميل

— أنت اذاً من الاشراف ؟

— نعم يا مولاى

— ما اسمك ؟

— نفرتيق

— نفرتيق ! اسم جميل يرن في الاذن رنة طرب ، كأنه نغم قيثارة تضرب اوتارها انامل الحسان

سكتت الفتاة ولم تنبس ، وحاولت أن تحول نظرهـا عن نظر فرعون . لـكن امنحوتب نهض من مكانه ، وأخذ رأسها بين يديه ، وحدق اليها البصر ، وقال بلهجة حارة :

— نفرتيق ! ستتوجين ملـكة على مصر !

فاكبت الفتاة تقبل يدي فرعون العظيم وهي تضحك وتبكى في وقت واحد ، وقد أوشكت تلك الـكلمات التى تساقطت من فم الملك أن تفقدها الرشد والادراك ، وجعل امنحوتب يداعب جدائل شعرها الناعم بين أنامله ، ويقول مردداً :

— ستتوجين ملـكة على مصر ، فاذهبي ، وتطيبي ، وانتظري ما يحمله اليك الغد من مسرات وسعادة ومجد وهناء ! ستتوجين ملـكة على مصر ! ستتوجين ملـكة على مصر !

* * *

حاولت الملـكة تي أن تثنى وحيدها عن عزمه ، وأن تحمـله على احترام العهد الذى قطعته باسمه للملك دشراته وبنته تادوو ، وأن تقنعه بأن زواجه من راقصة قد يجر عليه مصاعب ومشا كل هو في غنى عنها ، وأن رئيس الـكهنة لن يرضى بذلك الزواج ، وأن المستقبل سيكون مثقلا بالحوادث الجسام اذا ظل الملك الشاب على رأيه . لـكن امنحوتب أبى الا أن ينفذ ما عزم عليه ، وكان يجيب على نصائح أمه بهذه الكلمات

التي لم تتغير ولم تتبدل :

— ستتوج نفرتيتي ملكة على مصر !

***

لم يمض شهر واحد على ذلك اليوم الذي وقع فيه نظر الملك على الراقصة نفرتيتي للمرة الاولى ، حتى وصل الى طيبة موكب فخم ، يتقدمه الجنود حاملين الرماح والاقواس ، ويحيط به من كل جانب العبيد والخدم حاملين الهدايا والعطور ، ويتوسطه هودج من الذهب الخالص ، قائم على مركبة تجرها الجياد ، وقد تربعت فيه ، على وسائد حمراء مزركشة بالخيوط الذهبية ، فتاة ينطبق عليها المثل السوري الغارق في القدم : « تقول للبدر قم ودعني أحتل مكانك ! »

ذلك هو الموكب الذي سيره الملك دشراته الى طيبة ، وتلك هي ابنة الملك تادوو التي أعدها أبوها زوجة لفرعون ، والتي أعرض عنها امنحوتب وفضل عليها راقصة في قصره تدعى نفرتيتي

أمر فرعون بأن يكون استقبال ابنة الملك السوري بالغاً منتهى الحفاوة ، وأن تحل ومن معها في القصر الملكي في جناح خاص. ولكنه أبى أن يراها وأن ينفذ ما جاءت الفتاة لأجله من عند أبيها

مر اسبوع وتلاه اسبوع آخر ومرت أسابيع فشهور ، والملك باق على عزمه ، مصر على ما أبداه لأمه ، دون أن يؤثر فيه الحاح الكهنة أو ينال منه تهديدهم

واضطرت الملكة تي أن تعيد الفتاة الي ابيها الملك دشراته ، مع رسول يقول ان فرعون مريض وان مرضه يحول دون زواجه

وفي الوقت الذي كان الرسول يفضي برسالته الى الملك دشراته ، محاولا اقناعه بأن أمنحوتب لن يقدم على زواج ولن يتخذ له امرأة ، كان القصر الملكي في طيبة يشهد حفلة زفاف بسيطة لا تتفق مع عظمة التاج

وفي تلك الساعة التي كانت فيها الاميرة تادوو تنتحب بين يدى أبيها وتشكو اليه ماحل بها في مصر من خيبة الامل ،وما آل اليه حظها، كانت نفرتيتى الراقصة في القصر تضع على رأسها تاج الملك الذي وعدها به فرعون الشاب !

* * *

ومات امنحوتب في الثلاثين من عمره ، بعد أن أحدث فى مصر ذلك الانقلاب الديني الهائل ، واتخذ لنفسه اسم اخناتون

ورزق من زوجته نفرتيتي سبع بنات تزوجت الثانية منهن شاباً من أشراف القصر يدعى توتو

وهو الذي عرف فيما بعد باسم توت عنخ آمون !

معتوقة كليوباطرا

أشارت كليوبطرا الى الاماه والعبيد بالانصراف ، فسجدوا الى الارض في حضرتها ، ثم تواروا وراء السجف والاعمدة والجدران ، وبقيت ملكة مصر الفاتنة الساحرة مع وصيفتها المعتوقة سيدونيا ، في القاعة الواسعة الارجاء

وقالت كليوبطرا :

— لقد مللت الانتظار يا سيدونيا ، وضاق صدرى ولم أعد قادرة على الاحتفاظ بالسر الذى أكتمه عن الجميع !

فقبلت الفتاة قدم مولاتها ومالت برأسها على ركبة كليوبطرا وقالت :

— أى سر تعنين أيتها الملكة السعيدة ؟ أتسمحين لهذه العبدة الطائعة ، والخادمة الامينة ، المدينة لك بالحياة والحرية ، بأن تستطلع مكنونات صدرك وتخفف ان استطاعت من كآبتك ؟

— إنى أحبك كثيراً يا سيدونيا ولا إخالك تشكين في عطفى . فقد أطلقت حريتك ، وحطمت قيود الذل والعبودية التى ورثتها عن أبيك وأمك . فأصبحت منذ سنة كاملة معتوقة حرة طليقة . شأنك في هذا القصر وفى هذا البلد شأن الأحرار لا شأن الاماه والعبيد . وقد رغبت اليك فى اختيار الرجل الذى تريدينه زوجاً لك ، فان وقع اختيارك على أحد الجنود أو على رجل من رجال القصر فهو لك وأنت له ، وان وقع اختيارك على أحد العبيد فانى أعتقه كما أعتقتك ليصبح لك وتصبحين له

— نعم يا مولاتي ، هذا ما سمعته منك مراراً . وقد أفضيت اليك بأمنيتي منذ أيام وقلت لك انني أختار النوتي « هامو » زوجاً لي

— ان هامو عبد أسود . أرسله الى أحد أمراء الاحباش هدية من لدن زوجته ، فاستخدمته في السفن الحربية الراسية في ميناء الاسكندرية . وقد أجبتك الى رغبتك ، وحققت أمنيتك ، فمنحت هامو الحرية وأصبح منذ أيام معتوقا مثلك . فهل أنت سعيدة يا عزيزتي ؟

— انني سعيدة يا مولاتي . ولكن سعادتي لن تكون كاملة الا اذا رأيتك أنت سعيدة فرحة راضية

فأمسكت كليوبطرا عن الجواب ، ووضعت يدها على رأس سيدونيا المعتوقة المخلصة المحبوبة ، فرفعت الفتاة نظرها ، ورأت دمعتين تنحدران من مقلتي كليوبطرا على خديها الورديين . فقالت بصوت مضطرب :

— مولاتي ! ما بك ؟

فأجابتها الملكة :

— تذكرين يا سيدونيا ذلك القائد الروماني الشاب ، الذي رافقني الى الاسكندرية ، ثم رحل عنا على رأس جيشه اللجب لفتح الامصار واخضاع الممالك وضم بلاد مادى وفارس الى أملاك الرومانيين ؟

— مارك أنطونيو ؟ ومن منا لا يذكره يا مولاتي . ونحن نعلم انه أصاب حظوة لديك ، وان قلبك يخفق بحبه ، ويطير شعاعاً عليه ، وانك ترقبين عودته من يوم الى آخر ؟

— لقد طالت غيبته يا سيدونيا . واعلمي مالا يعلمه الآن سواي في هذا القصر : ان مارك أنطونيو سيهجر زوجته الرومانية اوكتافيا

ويحلى محاها . وسوف نجلس معاً على عرش واحد ، يخضع لصولجانه الشرق والغرب !

— أرجو أن تحقق الآلهة آمالك يا مولاتى !

— ولـكن أنطونيو أبطأ في العودة وهذا ما يثير شجوني ويبعث القلق الى نفسي . انى أخاف عليـه عاديات الزمان ومكايد الانسان . فارفعى معي أكف الصلاة للآلهة ، ولنضرع اليها طالبين منها أن تحرس أنطونيو في غزواته وحروبه ، وفي كره وفره ، وفي ذهابه وأوبته !

وسجدت كليوبطرا . وسجدت سيدونيا . وارتفع صوت المرأتين في سكون الليل صاعداً الى مقر الآلهة مسيرة الاقدار ، والقابضة على مصير الاخيار والاشرار !

* * *

هجر أنطونيو زوجته أوكتافيا وتزوج كليوبطرا . ولـكنه لم يجرؤ على المجاهرة بذلك ، واعلان نبأ هذا الزواج في روما ، خوفا من هياج الرأى العام عليه ، وانصراف الانصار والاعوان عنه

وكان خصمه وغريمه أوكتافيو ، شقيق زوجته أوكتافيا ، يسعى الى هلاكه بجميع الوسائل المتوفرة لديه ، انتقاماً لأختـه من ناحية ، وطمعاً في الاستئثار بالسلطة دون أنطونيو من ناحية أخرى . فجعـل هذا العدو العنيد يعمل على حمل أنطونيو على المجاهرة بأمر زواجه ، والاعتراف أمام الرومانيين بأنه هجر زوجته الرومانية الاصيلة ، لـكي يحل محلها الملـكة كليوبطرا

وسعت كليوبطرا من ناحيتها الى حمل أنطونيو على اعلان خبر زواجهما ، لـكي تبرر موقفها أمام رعيتها . فاضطر القائد الشاب في النهاية الى الخضوع لاحكام الضرورة القاضية

وفي سنة ٣٦ قبل الميلاد ، أذاع أنطونيو في طول البلاد وعرضها

من أطراف مصر الى تخوم الدولة الرومانيـة ، أنه أصبح زوجاً لـكليوبطرا ملكة مصر ، وأن كليوبطرا حلت بجواره محل زوجته المهجورة الرومانية أوكتافيا

ومنذ ذلك الوقت جعل الرومانيون ينظرون اليه بعين الحذر والغدر ، نظرهم إلى رومانى عاق خائر النفس ، ويلتفون حول أوكتافيو الروماني البار المخلص الأمين !

وأعمى الحب بصر أنطونيو وبصيرته ، فلم يدرك الخطر الداهم الذي بدأ يحدق به منذ تلك الساعة التى أذاع فيها ما أذاعه

وبعد مدة قصيرة ، أمام الجموع المحتشدة في ملعب الاسكندرية ، نادى مارك أنطونيو الرومانى بكليوبطرا اليونانية المصرية ، ملـكة على مصر وقبرص وأفريقيا وسوريا المنخفضة . وأشرك معها في الملك الفتى قيصرون ابنها من يوليوس قيصر العظيم

وكان قد استولد الملـكة طفلين . فنادى باحدهما ملـكا على ارمينيا وبارتيا ومادى ، وبالآخر ملـكا على فينيقية وليبيا وقيليقيا

فـكان جواب روما أن انعقد مجلس الشيوخ فيها ، وأعلن على الملأ ان مارك أنطونيو « خائن للوطن ! »

وكان ذلك الاعلان نذيراً بالنهاية الفظيعة التي ختمت بها فيما بعد حياة العاشقين !

وبدأ القتال بين أنطونيو وأوكتافيو فى سنة ٣٢ قبل الميلاد

* * *

أقامت كليوبطرا حفلة زفاف رائعة ، دعت اليها حاشية القصر والأسر الشريفة في الاسكندرية ، وأعلنت فيهـا زواج وصيفتها المحبوبة ، سيدونيا الجميلة ، وقدمت للمدعوين الرجل الذي وقع عليه اختيار الفتاة : هامو العبد الحبشى ، الذى رفعته الملـكة بارادتها السامية

الى مصاف الاحرار والنبلاء !

وأراد مارك أنطونيو من ناحيته أن يكافىء معتوقة عشيقته على اخلاصها وتفانيها في خدمة كليوبطرا . فعين زوجها الاسود قائداً لاحدى السفن الحربية الرومانية التى جاء بها الى مصر

وكان أنطونيو يدعو زوج سيدونيا الحبشى الى كل حفلة يقيمها فى القصر . وكانت كليوبطرا لا تبدو على سريرها أمام الناس ، ولا تأوي الى خدرها طلباً للراحة الا والمعتوقة الجميلة بجانبها

ونعم الزوجان السعيدان ، هامو وسيدونيا ، بما لم ينعم به انسان فى ذلك العهد ، الذى يحق لنا أن نسميه عهد الحب والغرام !

وكانت سيدونيا واسعة الحيلة ، تميل دائما الى المزاح ، وتبتكر لسيدتها وسائل اللهو والتسلية فى ساعات الملل والضجر ، أو تبحث لها عن منافذ للخروج من المآزق الصعبة ، في الازمات النفسية أو السياسية

قالت لها كليوبطرا ذات يوم :

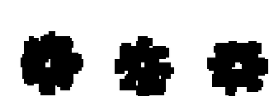
— حدث أمس يا سيدونيا أن دعانى أنطونيو الى نزهة على شاطىء البحر فى حديقة القصر . فلبيت الدعوة وطفنا معاً في أرجاء الحديقة . وجلسنا على ذلك النتوء البارز فوق المياه ، والذي تتكسر عليه الامواج المزبدة . وهناك كاشفني أنطونيو بأمر فوجئت به : كاشفني بالشكوك التى تخالج صدره من ناحيتى . فهو يعتقد انني أرغب في التخلص منه بأن أدس له السم في الطعام والشراب . ان أعداءنا يا سيدونيا يحاولون بجميع الوسائل والطرق ان يفرقوا بيني وبين زوجى ، وأخشى أن تدب بيننا العقارب ، وأن ينتهي غرامنا الجميل بفاجعة تنهار معها سعادتنا !

— ينبغى يا مولاتى أن تنظري الى الحقائق ، وأن تكونى دائما على حذر . فان روما تعرف كيف تنتقم من الذين يسيئون اليها . وقد

أساء اليها أنطونيو اساءة عظيمة .ولـكن مصيرك مرتبط الآن بمصيره ، ولا بد من الاحتفاظ به ، وتغذية الحب في صدره ، وحمله على أن يضع فيك ثقته العمياء بلا قيد ولا شرط

— وكيف السبيل الى ذلك ؟ ان ما أفضى به الي أنطونيو أمس جعلني أفطن الى أمر لم أفطن اليه من قبل . أما رأيت كيف انه ، في الولائم والحفلات ، يتجنب دائما ان يمد يده الى لون من الاطعمة قبل أن أسبقه اليه . ولا يتناول شرابا إلا من الـكأس التي أشرب فيها ! انه يخشى السم ويخيل اليه انه في كل طعام وفي كل شراب !

— مولاتي . سوف نلقي غداً على زوجك الروماني درساً يعلم منه ان أشد النساء غباوة في استطاعتها أن تخدع أذكى الرجال وأبعدهم ادراكا



جلس أنطونيو كعادته كل يوم ، مع زوجته كليوبطرا ، على الشرفة الفسيحة المطلة على البحر ، أمام مخدع الملـكة ، وحمل العبيد الى العاشقين ألوان الطعام وأقداح الشراب

فأكلا وشربا . . .

وكانت كليوبطرا تتناول ألوان الطعام الواحد بعد الآخر . فتأكل منها وتقدم لزوجها . ثم تتناول الاقداح فتشرب وتسقي أنطونيو

وبعد أن سكر الاثنان بنشوة الخمر . وهاج فيهما الشعور والحواس ، أخذت كليوبطرا بيمينها كأساً تفيض بالخمر ، وتجرعت نصفها دفعة واحدة ، ثم نثرت فيها أوراق وردة حمراء كانت تحملها في شعرها ، وقدمت الـكأس للحبيب العزيز !

فتناول أنطونيو الـكأس من يد معبودته ورفعها الى فمه وهمَّ بشربها

فصاحت كليوبطرا ممسكة بيده :

— لا تشرب يا أنطونيو ! أعد الي هذه الكأس !

فأعادها أنطونيو وقد ارتسمت على وجهه أمارات الدهشة ، ونظر الى كليوبطرا وهو لا يدرك معنى ما تفعل

وقالت الملكة :

— سيدونيا . . . خذي !

فأخذت سيدونيا الكأس من يد مولاتها . ونادت أحد العبيد وأمرته باسم الملكة أن يشرب

أطاع الرجل صاغراً أمر كليوبطرا . . .

وبعد دقائق معدودة سقط على الارض وفارقت روحه الجسد !

فطوقت كليوبطرا عنق أنطونيو بذراعيها وقالت وهي تغمر رأسه بالقبل :

— أيها المجنون الاعمى ! لو أردت التخلص منك لما عدمت حيلة لدس السم لك في الطعام والشراب ولو بواسطة وردة كهذه !

فأدرك أنطونيو ان الوردة مسمومة . وان زوجته أرادت أن تلقي عليه درساً وتبدد شكوكه بذلك الدرس !

وفي اليوم التالى قالت كليوبطرا لسيدونيا :

— لقد نجحت حيلتك أمس ، وكان الدرس رائعاً قاسياً !

***

دارت رحى الحرب بين العدوين اللدودين اوكتافيو وأنطونيو . وسعى كل منهما الى القضاء على الآخر والاستئثار بالسلطان في الشرق والغرب

٢ سبتمبر سنة ٣١ قبل الميلاد . . .

التقت سفن أوكتافيو بسفن أنطونيو وكليوبطرا في مياه

« اكسيوم » على الساحل اليوناني

وبدأت المعركة . . .

واذا بالسفن المصرية تقلع فجأة بعيداً عن دائرة القتال

واذا بالسفن الرومانية الموالية لأنطونيو تتبعها وتفر في اثرها

واذا بذلك اليوم المشهود يدون في صفحة الخلد من التاريخ ، ويفتح أمام أوكتافيو باب المجد على مصراعيه

واذا بكليوبطرا ، بين يوم وليلة ، تنقلب على عشيقها وزوجها أنطونيو ، وتقيم في سبيله العراقيل وتنصب له المكائد

كانت تلك اليونانية الساحرة الفاتنة التي تبوأت عرش مصر ، قد خدعت من قبل يوليوس قيصر العظيم وأوقعته فى حبها ثم خانت عهده

وخدعت بعده أنطونيو وأوقعته في حبها ثم خانت عهده أيضاً

وجعلت تفكر بعد ان ثبت لها ان أوكتافيو منتصر وانطونيو منهزم بلا شك امام خصمه ، في إغواء هذا الخصم والتسلط عليه

وأدرك أنطونيو الحقيقة المرة . ولكن بعد فوات الوقت

مرت سنة كاملة منذ اليوم الذى انهزمت فيه سفن كليوبطرا وأنطونيو بلا قتال في اكسيوم ، والقائد الروماني العاشق يتقلب على نيران الحب والغيرة والغيظ والأسى ، وكليوبطرا تسحره بألفاظها تارة وتزجره تارة أخرى

وفي أول أغسطس سنة ٣٠ قبل الميلاد . وصل جيش أوكتافيو الى أبواب الاسكندرية وخرج جيش أنطونيو للقائه

لا بد من القتال . وستكون معركة فاصلة : فاما أن ينهزم الرومانيون بقيادة أوكتافيو فيخلو الجو لانطونيو . وإما أن ينتصر أوكتافيو فيخضع له الشرق والغرب ، ويقضى على أنطونيو وزوجته

* * *

— سيدونيا .. تعالى .. لا أريد ان يلحق بي سواك يا صـديقتي المحبوبة . هيا بنا إلى ذلك الضريح المظلم

— وهامو يا مولاتى ؟ ألا تسمحين له بالمجيء معنا ؟

— ليأت . . وليسرع !

خرجت كليوبطرا ومعها معتوقتها سيدونيا ، وهامو الحبشي الاسود ، من القصر الملـكي في الاسكندرية فى تلك الليلة الليلاء ، تحت ستار الظلام الحالك ، ولجأوا إلى الأقبية السوداء التى تضم أضرحة البطالسة آباء كليوبطرا وأجدادها

وسألت الملـكة معتوقها هامو :

— هل نفذت أوامرى كما أصدرتها اليك ؟

— نعم يا مولاتي . ان قواد الجيش وقواد السفن . لن يطيعوا أنطونيو ولن يلبوا دعوته إلى القتال

— انى خائفة يا هامو ، خائفة يا سيدونيا وأخشى أن يلحق بى أنطونيو الى هنا ، وينزل بى العقاب الذى أستحقه . فياله من غرام ينتهي اليوم بهذه الخاتمة المفجعة

* * *

قضت كليوبطرا ليلتها بين أضرحة الملوك في تلك الأقبية المظلمة وتمرد الجيش . وتمرد الاسطول

وأدرك مارك أنطونيو ان الدائرة قد دارت عليه ، فطعن نفسه بسيفه ومات منتحراً

ودخل أوكتافيو مدينة الاسكندرية ظافراً منصوراً ، وأعلن انه سيجر وراء مركبته ملـكة مصر الحسناء مربوطة بشعرها ، وانه سيطوف بها على هذه الصورة في مدينة روما العظمى

لـكن كليوبطرا لم تمـكنه من نفسها . فماتت من لسعة حية حملها

اليها هامو الحبشي الاسود متنكراً في ثوب فلاح

وفي اليوم الذى ماتت فيه كليوبطرا ، عثر جنود أوكتافيو ، وهم يفتشون القصور والمنازل والاقبية ، على جثتين متعانقتين ، في ضريح البطالسة : جثة العبد الحبشى المعتوق ، هامو القائد البحرى ، وجثة الجارية المعتوقة سيدونيا الجميلة

واستولى أوكتافيو على كنوز البطالسة . وأصبحت مصر منذ ذلك اليوم ولاية رومانية على رأسها حاكم رومانى

القمران

شرشل ، سيزاريا ، قيصريه . . . ثلاثة أسماء لمسمى واحد . غير أن الاسم الاول هو الذي تعرف به الآن تلك المدينة الرومانية القديمة الواقعة على شاطىء « الجزائر » الشمالى

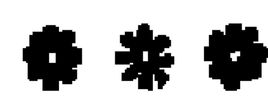
أطلق عليها « جوبا الثانى » ملك موريتـانيا اسم « سيزاريا » وترجمته « قيصرية » تخليداً لذكرى سـيده ومولاه « أوغسطس قيصر » الرومانى . ولا تزال آثار الهياكل والقصور والقلاع التي شيدها ذلك الملك في «قيصرية» عاصمة ملـكه باقية الى الآن في المدينة التى يعرفها الجزائريون الآن باسم « شرشل »

مات جوبا الثانى ملك موريتانيا في العام الثانى عشر للميلاد تاركا وراءه ذكرى طيبه واسماً عطراً ومؤسسات عديدة ومؤلفات باللغة اليونانية قيمه مفيدة

وكانت زوجته « كليوبطرا سيليني » ـ أو « الاميرة قمر » ـ قد سبقته الى الآخرة

وفي اليوم الذى انتقلت فيه « كليوبطراسيلينى » الي عالم الارواح رحلت أيضاً عن هذه الارض الفانية وصيفتها المحبوبة « لونا » او بعبارة أخرى « قمر »

فمن هو جوبا الثاني . ومن هما « القمران » اللذان غابا عن الانظار قبل أن يصبحا بدرين كاملين ؟



ماتت كليوبطرا العظيمة ملـكة مصر منتحرة على أثر موت عشيقها

« مارك انطونيو » تاركة بعدها أبناء من آباء مختلفين . بينهم ثلاثة هم ثمرة غرامها الجنوني الذي جر عليها وعلى عشيقها الروماني المصائب والويلات . وهؤلاء الأطفال الثلاثة هم :

الكسندر هليوس أو اسكندر الشمس ـ وكليوبطرا سيليني أو كليوبطرا القمر ـ وفيلادلف

ثلاثة اطفال ينطبق عليهم المثل القائل : « الآباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون ! »

* * *

أفل نجم انطونيو . وفشل ذلك القائد العاشق في ميدان السياسة والحرب ، وانهزم في الميادين شر هزيمة . ولم يستطع ثباتاً أمام اوكتافيو شقيق الزوجة التي طلقها انطونيو وسقاها كأس الهوان حتى الثمالة حبا بكليوبطرا ورغبة منه في التمرغ بين ذراعي تلك الملكة الفاتنة الساحرة

قطع أنطونيو حبل حياته بيده بعد أن يئس من النصر

وجاء أحد رجال كليوبطرا المخلصين الى الملكة التعسة بحية مسمومة في سلة مملوءة تيناً . فماتت تلك الميتة التي خلدت في التاريخ اسم الحية للمرة الثانية ـ منذ عهد أمنا حواء !

وفي العام التاسع والعشرين قبل الميلاد عاد أوكتافيو الى روما سائقا أمامه الاسرى والسبايا ، وبينهم أبناء كليوبطرا من عشاقها الكثيرين . وفي مقدمتهم أبناء عدوه من الملكة الراحلة

كان التوءمان ـ هليوس وسيليني ـ في العاشرة من العمر . وكان فيلادلف اصغر منهما سنا

عهد أوكتافيو الى أخته اوكتافيا زوجة انطونيو المطلقة المهانة ، في تربية أبناء زوجها من عشيقته تربية رومانية خالصة ، بحيث تستطيع روما في مستقبل الايام أن تستخدمهم لقضاء مآربها وتحقيق اغراضها

ولكن الكسندر هليوس وفيلادلف ماتا قبل ان يبلغا الرشد .
وبقيت كايوبطرا سيليني على قيد الحياة

وعندما وضعت روما تاج الامبراطورية على رأس أوكتافيو ونادت به امبراطوراً على الغرب والشرق باسم « أوغسطس » ، جعل الرجل يفكر في انشاء دولة جديدة تخضع لتاج قيصر ويجلس على عرشها ملك وملكة ممن غذتهم روما بلبنها ومجنتهم بيدها

وكان يقيم في روما في ذلك الوقت الامير جوبا الافريقي بن جوبا الأول ملك نوميديا . وكان « يوليوس قيصر » قد هزم أباه واجتاح وطنه وضمه الى ممتلكات روما الشاسعة

نشأ الامير جوبا في روما نشأة لاتينية أنسته أصله ومصائب أبيه ، فأصبح أطوع لقيصر من بنانه . وعندما بلغ أشده أقامه أوغسطس ملكا على « موريتانيا » الافريقية باسم « جوبا الثاني »

وأطلق الملك الجديد على عاصمة ملكه اسم « سيزاريا » أو « قيصرية » اعترافاً منه بفضل ولي نعمته « أوغسطس قيصر »

وفكر الامبراطور في اعطائه زوجة تكون مثله مشبعة بروح روما وثقافتها . فوقع اختياره على « كليوبطرا سيليني » ابنة الملكة المصرية العظيمة ، والحلقة الوحيدة الباقية من سلالة مارك انطونيو
فأصبحت ابنة كايوبطرا ملكة مثل أمها

وقال قيصر لربيبته وهو يودعها يوم رحيلها عن روما الى عاصمة ملكها :

— لقد كان اسم «هليوس ـ الشمس» شؤماً على أخيك اسكندر فلعل اسم « سيليني ـ القمر » يجلب لك يا ابنتي الخير والسعادة والهناء !

* * *

انصرف جوبا الى ادارة شؤون مملكته بلباقة ومقدرة . فازدهرت موريتانيا في عهده وعاش شعبه في رخاء واطمئنان . وتمكن ذلك الملك النابغة من التوفيق بين ارضاء بلاده وارضاء روما في آن واحد

أما كليوبطرا سيليني فانها لم تكن على وفاق مع ذلك الزوج الذى كان يهمل المملكة ولا يعطيها من وقته اكثر مما تسمح له بذلك شؤون المملكة . ولم تكن تلك الشؤون لتسمح له بالاهتمام بزوجته والقيام تجاهها بواجبه كله

وكانت كليوبطرا سيليني تعد نفسها أشرف محتداً من ذلك الزوج وأنقى دماً منه . أليست أمها كليوبطرا ؟ أليس والدها مارك أنطونيو؟ أليست الدماء التى تجرى في عروقها مزيجاً من الدم الرومانى النبيل والدم اليونانى النبيل أيضاً ؟ فمن يكون جوبا الافريقى الموريتانى بالنسبة اليها ؟

وامرأة هذه عقليتها وهذا اعتقادها فى نفسها لا يمكن أن تجعل زوجها سعيداً في حياته وتضمن له الهناء . واذا أضفنا الى ذلك أن الزوج نفسه كان فيشغل شاغلعن زوجته ،منصرفاً الى معالجة شؤون مملكتهورعاية الادب والعلم وتشييد الهياكل، والقصور وتأسيس المعاهد وخدمة الفنون ، أدركنا أن كلا الزوجين الملكيين كان يعيش غريباً عن الآخر ، معتمداً على نفسه فقط ، غير باحث عند رفيق حياته على معونة أو عطف أو حب !

وكانت الملكة كليوبطرا سيلينى تتمتع بحقوق خاصة بها . اقرتها روما وارغمت الملك جوبا الثانى على اقرارها ايضا ، بحجة أن كليوبطرا رومانية أصيلة في حين أن زوجها غريب عن روما تبناه الامبراطور فاكتسب القومية الرومانية اكتساباً . وتلك الحقوق التى كانت كليوبطرا تتمتع بها كانت تجعلها قادرة على طبع صورتها على النقود

الموريتانية وعلى جدران الهياكل والقصور ، واصدار أمرها الى رجال الحرس والجيش ، ومناهضة سلطة الملك اذا خطر ببالها أن تفعل

وكثيراً ما كان يخطر ذلك ببال كليوبطرا سيليني !

* * *

— تعالى يا لونا . تعالي فانني أشعر الليلة بضيق في صدري ويخيل إلي أنني مسرعة بخطى واسعة نحو القبر !

القت « لونا » بنفسها على قدمى سيدتها وقالت بصوت حنون ينم على حب واخلاص :

— بددى أفكارك السوداء يا مولاتي فسوف تعيشين طويلا . انك جميلة قوية والمستقبل يضحك لك ويناديك !

— كلا يا لونا ! . . لقد شاءت الآلهة أن تغرب « شمس » أخي هليوس قبل الأوان ، وسوف يغيب «قمر» سيليني قبل الأوان أيضاً !

قالت الملكة الشابة هذا وبكت

وتساقطت دموعها على يدى وصيفتها « لونا » فبكت الجارية لبكاء سيدتها

وامتزجت دموع « القمرين » سيليني ولونا في سكون ذلك الليل، في قصر جوبا الثاني المشرف على البحر بمدينة قيصرية

— لونا. لقد اطلقوا عليك هذا الاسم لانك ولدت في الليلة التى ولدت فيها أنا ! سمونى بلغة أمى اليونانية « سيليني » — وسموك بلغة عشيق امى انطونيو الروماني « لونا » والاسمان لمسمى واحد . هو القمر الذى يضيء الليالى السوداء . ولكن القمر اليوناني سوف يغيب قبل أن يصير بدراً . فلن يتحقق دعاء أوغسطس قيصر! وأرجو يا أختى أن يبقى القمر الرومانى متلألئاً في الفضاء وأن تعيشي طويلا يا لونا !

فقبلت لونا قدمى مولاتها وقالت والزفرات تخنقها :

ــ لن أنسى يا سيدتى أن أبى المصري هو ذلك الرجل الذى خضع لارادة أمك الملكة العظيمة ، وحمل اليها في قصرها بالاسكندرية ، الحية المسمومة فى سلة التين . لقد مات أبي أيتها الملكة بعد أن أفضى الي برغبته الاخيرة : وهي أن الحق بك حيث تذهبين ، وان اكون لك خادمة مطيعة كما كان بائع التين خادماً مطيعاً لأمك ، وان ارحل عن هذا العالم في اليوم الذى ترحل فيه عنه كليوبطرا سيليني ويغيب قمرها عن الانظار !

ــ اذن سوف نلحق بأبي وأخوى في العالم الآخر متعانقتين ، فيلتقى القمران هناك بكليوبطرا ربة السحر والجمال وابنها هليوس الشمس المشرقة !

* * *

وفي اليوم التالى ، ارتفعت فى قصر الملك أصوات النساء ومزق عويلهن الفضاء وحمل الرسل الى الملك جوبا الثانى خبر وفاة زوجته كليوبطرا سيليني

ترك الملك مجلسه . وأسرع الى حجرة الملكة . فاذا به أمام جثة هامدة . . .

بل امام جثتين هامدتين !

جثة زوجته وقد خرجت روحها من بين شفتيها ، تاركة عليهما ابتسامه حلوة

وجثة الوصيفة لونا وقد بات وجهها حالك السواد من أثر السم الزعاف الذي تجرعته

وقف جوبا الثاني أمام الجثتين مطرق الرأس صامتاً . ثم التفت الى نساء القصر ورجال الحاشية وقال :

ـــ لتدفن الملكة في حديقة القصر . وليعلن الحداد عليها اربعين يوما . . .

ثم تقدم من جثة زوجته وتناول يدها بيده وقال :

ـــ لم نذق لذة الحياة معا ايتها الحبيبة ولم تنعم بالسعادة والهناء في هذا العالم . فلتسهر عليك الآلهة في الآخرة ! واعدك الآن بانني سأتعهد بعنايتي ولدنا « بطليموس » وابنتنا « دروزيلا » راجيا ان يكونا في هذه الحياة اوفر منا حظا وسعادة وهناء !

وهم الملك بالخروج من قاعة الموت فارتفع صوت سائلا :

ـــ ولونا ؟ لونا الوصيفة الامينة ، اين ندفنها ؟

فأجاب الملك :

ـــ لتدفن بجوار سيدتها . فقد كان القمر للقمر وفيا !

* * *

وفي حديقة القصر رقد القمران :

كليوبطرا سيليني ، ابنة كليوبطرا ملكة مصر من عشيقها الروماني مارك انطونيو . وزوجة الملك جوبا الثاني ، والوصيفة «لونا» ابنة البائع المصري الذى حمل الى كليوبطرا العظيمة الحية المسمومة في سلة التين

الحب العجيب

— أتحبيننى يا فينا ؟

— أعبدك يا لوكوس !

— أتقسمين لى يمين الاخلاص في الحب ؟

— الى النهاية !

— إذاً ، سأرحل هادئاً مرتاح البال الى الحروب والغزوات ، واثقاً بك عالماً أنك ستفكرين في وترفعين صلواتك إلى الآلهة لكى تأخذ بيدي وتدفع عنى الموت في الميادين !

قال لوكوس هذا وطبع على جبين حبيبته « فينا » قبلة حارة وانصرف من مخدعها عائداً الى ثكنات الجيش

وبعد نصف ساعة ، كان في المخدع شاب آخر ، بهى الطلعة طويل القامه قوي العضلات مثل لوكوس

ودار بينه وبين الفتاة فينا الحديث الآتى :

— أتحبيننى يافينا ؟

— أعبدك يا لاجوس !

— أتقسمين لى يمين الاخلاص في الحب ؟

— الى النهاية !

— إذاً سارحل هادئاً مرتاح البال الىالحروب والغزوات ، واثقا بك ، عالماً انك ستفكرين في وترفعين صلواتك الى الآلهة لكي تأخذ بيدى وتدفع عنى الموت في الميادين !

قال لاجوس هذا . وطبع على جبين حبيبته « فينا » قبلة حارة ـ

مثل قبلة لوكوس ــ وانصرف من مخدعها عائداً الى ثكنات الجيش !

* * *

امرأة تحب رجلين !

ليس هذا ما يدعو الى الدهشة والاستغراب ، فان التاريخ يذكر في سجلاته أكثر من حادث واحد من هذا النوع . انما العجب كل العجب في أن تحب المرأة رجلين حباً قوياً عميقاً ، يدفعها الى التضحية في سبيل الاثنين . والعجب كل العجب في أن يكون كل من الرجلين المحبوبين عالما بمكانة خصمه لدى المرأة ، وأن يكون راضياً بذلك، متفقاً مع غريمه على أن ينتحي أحد الاثنين طائعاً مستسلماً عند ما تجاهر الفتاة في حضورهما بأنها تفضل هذا على ذاك ، أو ذاك على هذا ! . .

ــ أتحبينني يا فينا ؟

تلك كانت حالة العاشقين المعشوقين ، لوكوس الروماني ولاجوس اليوناني ، مع الفتاة فينا ، في قصر ملكة مصر كليوبطرا !

من هي « فينا » مثيرة ذلك الحب المزدوج ، وصاحبة القلب المشطور الى شطرين ؟

هي فتاة مجهولة الأصل ، لم يعرف أحد من أمرها شيئاً ، لأن الرجل الذى كان مطلعاً على سر حياتها مات في القصر فجأة ، وقيل على أثر موته إن يداً أثيمة دست له السم في الطعام ، وإن تلك اليد هى الفتاة « فينا » نفسها ، لأنها كانت تريد التخلص من سيطرته عليها

أما الرجل فاسمه « عمرو » وهو عربي جاء مصر بعد دخول يوليوس قيصر الى الاسكندرية وجلوس كليوبطرا على عرش البطالسة. وكانت الفتاة « فينا » تصحبه وهي في العاشرة من عمرها

رأتها كليوبطرا فأحبتها واتخذتها وصيفة ونجية.. وكانت الوصائف الأخر في القصر يتهامسن فيما بينهن قائلات :

— هذه الفتاة هي أخت الملكة . فان بطليموس كان يحب امرأة عربية . وقد استولدها هذه الفتاة ثم قتلها وأرسل الطفلة مع أحد المقربين اليه وأعطاه مبلغاً من المال ، قائلا له ان يرحل عن مصر ولا يعود اليها إلا بعد موت الملك . فعاد عمرو مع الفتاة ابنة بطليموس بعد ان آل العرش الى كليوبطرا !

هذا ما كانت الوصائف يتهامسن به في القصر . وقد بلغت هذه الاشاعات مسامع الملكة فثار ثائرها ، وغضبت على وصائفها ، وساءها أن تتناقل الألسنة خبراً مثل هذا وأرادت أن تكذبه علناً ، فأغدقت نعمها على الفتاة الغريبة اليتيمة ، وقدمتها لمارك أنطونيو عشيقها الروماني المتيم ، قائلة له انها ابنة قائد من قواد الجيش في عهد أبيها ، وانها تحبها حباً جماً وتعاملها في القصر معاملة الأخت لأختها .

وكانت الفتاة « فينا » غريبة الأطوار ، غريبة الاخلاق ، غريبة الاعمال ، يخيل الى من يعاشرها ويجالسها انها مزيج من المتناقضات ، أو انها مكونة من شخصين شاءت الطبيعة ان تجعل منهما شخصاً واحداً

كان في استطاعة فينا ان تضحك وتبكي في آن واحد ، وأن تبدو في لحظة واحدة هادئة هائجة ، راضية ناقمة ، نائمة مستيقظة !

وتلك الظواهر الغريبة الشاذة كانت تحمل رجال الحاشية الملكية ونساء القصر على الاعتقاد بأن الفتاة المقربة من الملكة ليست امرأة كبقية النساء ، وأن للآلهة المسيطرة على مقدرات البشر يداً في تكوينها !

وكان أغرب تلك الظواهر الداعية إلى الدهشة والتساؤل ، ميل الفتاة « فينا » الى رجلين وشطر قلبها شطرين . فانها كانت تحب « لوكوس » الضابط الروماني في حرس كليوبطرا ، وكانت تحب « لاجوس » الضابط اليوناني في فرقة « فرسان الموت » . وكانت تجاهر

أمام الاثنين بانها تحب كلا منهما حباً خالصاً أكيداً ، وأنها لا تفرق ولا تستطيع ان تفرق بين الواحد والآخر !

وكانت الملكة كليوبطرا ، وهي العاشقة المجربة ، والمطلعة العليمة باسرار الحب ، تعلم ذلك وتشجع الفتاة على المضي في الحبين معاً ، إلى أن يجيء اليوم الذى تشعر فيه بان في استطاعتها أن تستغنى عن أحد الحبيبين دون ان يصاب قلبها بجروح تدميه

وشاهد سكان القصر الملكي ، في وقت من الاوقات ، أعجب حب دونه التاريخ في صفحاته ، حب الفتاة «فينا» المجهولة الأصل،وظهورها أمام الناس متأبطة ذراعي رجلين ، هما في الواقع صديقان وخصمان في آن واحد !

* * *

تمردت فرقة من الجيش الروماني الذي تبع مارك أنطونيو الى مصر وأقام فيها مع القائد العاشق ، فزحف حرس الملكة على العصاة لتأديبهم وذهب الضابط لوكوس الى الميدان

وتمردت القبائل على الحدود ، فزحفت فرقة « فرسان الموت » على العصاة لتأديبهم وذهب الضابط لاجوس إلى الميدان

وعكفت الفتاة فينا على الصلاة وحبست نفسها في حجرتها وجعلت تضرع الى الآلهة ليلا ونهاراً بان تحرس الحبيبين في ساحات الوغى ، وترد عنهما الأسنه والسيوف

مضى أسبوعان ثم مضى أسبوع ثالث ، وإذا بالرسل تعود إلى القصر حاملة أخباراً سارة عن فوز الحرس فى خنق عصيان الرومانيين واعادتهم الى حظيرة الطاعة

لكن تلك الاخبار كانت ممزوجة بالأسى : فان فرقة الحرس فقدت فريقاً من رجالها الاشداء . وكان الضابط لوكوس بين القتلى الذين

حمل الرسل خبر مصرعهم في ساحة الشرف

علمت فينا بما حل بحبيبها ، فلم تطق صبراً على هذه الكارثة وتناولت خنجرها الذهبي الصغير ، وهو هدية من الملكة كليوبطرا ، وأغمدت نصله في صدرها . فسقطت على الارض والدم يسيل من جرحها ...

بل من قلبها ...

فان الفتاة العاشقة طعنت نفسها بذلك الخنجر الذهبي ناحية اليسار من صدرها المرمرى ، فمزق النصل الحاد قلب فينا تمزيقاً ، وتدفقت الدماء منه على بلاط الحجرة أمام تماثيل الآلهة التى لم تستجب صلوات العاشقة المسكينة

ولكن حدث بعد ذلك ما جعل القصر كله يموج كالبحر الزاخر ، وتتصاعد فيه الاصوات من كل ناحية وصوب : أصوات الدهشة وأصوات الاستغاثة وأصوات الخوف والذعر !

مزق النصل قلب الفتاة ولكن الفتاة لم تمت ! ووقف قلبها عن الخفقان ولكن الحياة لم تفارق ذلك الجسد البديع

أما كان الناس يعتقدون ان للآلهة يداً في تكوين الفتاة الحسناء المجهولة الأصل ؟

* * *

ومضت أسابيع أخرى . وتماثلت فينا للشفاء دون أن يعود قلبها الى الخفقان

وحمل الرسل أخباراً سارة عن فوز « فرسان الموت » في تأديب القبائل العاصية واعادتها الى حظيرة الطاعة

وكانت هذه الأخبار كالاخبار السابقة ممزوجة بالأسى : فان فرقة الفرسان فقدت فريقاً من رجالها الأشداء . وكان الضابط لاجوس بين القتلى الذين حمل الرسل خبر مصرعهم في ساحة الشرف

علمت فينا بماحل بحبيبها الثاني ، فلم تطق صبراً على هذه الكارثة وتناولت خنجرها الذهبي المعهود ، وأغمدت نصله في صدرها ـ ناحية اليمين ـ وخرت على سريرها غارقة في بحر من الدماء !

* * *

كانت الطعنة الثانية هي القاضية . فقد عجز أطباء القصر عن اعادة الحياة الى جسم الفتاة العاشقة ، فبكتها الملكة كليوبطرا ، وأمرت بأن تدفن في حدائق القصر تحت شرفة مولاتها ، وأن تزرع الازهار على ضريحها

ولكن الملكة أرادت أن تحتفظ بأثر من آثار الفتاة التى قتلت نفسها مرتين في سبيل حبها المزدوج . فطلبت من الأطباء أن ينتزعوا قلب « فينا » من صدرها ، وأن يضعوه في اناء زجاجي ويرسلوه الى كليوبطرا للاحتفاظ به في حجرتها ـ حجرة الغرام التى كانت تذوق فيها مع عشيقها مارك أنطونيو ألذ ساعات مرت بها في حياتها

وأجيبت الملكة إلى طلبها . ومزق مبضع الاطباء صدر الفتاة

ووقف الاطباء مذهولين دهشين مذعورين أمام المنظر الذي وقعت عليه عيونهم ولمسته أيديهم . فقد وجدوا في صدر الفتاة قلبين !

وجدوا قلباً الى اليسار !

ووجدوا قلباً آخر الى اليمين !

كانت الفتاة فينا اذاً ذات قلبين ، وكا .ت ذات حبين ، وكانت ذات شخصيتين متباينتين أفرغتا في جسم واحد !

إذاً فهي امرأتان في امرأة وعاشقتان في عاشقة !

وكان غرامها أعجب غرام عرفه التاريخ . فقد خفق قلبها الايسر بحب الضابط لوكوس الروماني . وخفق قلبها الايمن بحب لاجوس الضابط اليوناني . وقتلت نفسها مرتين بأن مزقت قلبها الذى أحب

لوكوس بعد موته . ومزقت قلبها الذي أحب لاجوس بعد موته أيضاً !

وحفظ القلبان في اناء زجاجى في حجرة الملكة كليوبطرا

وعندما انهزمت جيوش الملكة وحليفها مارك انطونيو ، وانتحر القائد الرومانى العاشق ، ودخل عدوه اوكتافيوس الاسكندرية فائزاً منصوراً ، وماتت كليوبطرا تلك الميتة المعروفة ، وجد الرومانى المنتصر أوكتافيوس ، في حجرة الملكة ، ذلك الاناء الزجاجى ، فحمله معه الى روما بعد ان سمع من الرواة قصة الفتاة العاشقة فينا ذات القلبين ، وذات الجبين !

وكان ذلك في سنة ٣٠ قبل الميلاد

جواهر بطليموس

كتب بطليموس الثالث ، ملك مصر الاغريقي ، الى صديقه كليومينس ملك اسبارطة يقول :

« رداً على خطابك الذى تطلب إلي فيه أن أنجدك بالمال والرجال ، أخبرك بأنني أجيبك الى رغبتك وألبي نداءك . ولكننى أشترط عليك أن ترسل إلي من ناحيتك رهائن أحتفظ بها مادام جنودي بعيدين عن وطنهم . ولا إخالك معارضاً في أن تكون الرهائن أمك وزوجتك وأولادك . فابعث بهم إلي ، وفي اليوم الذى يصلون فيه الى الاسكندريه يبحر جنودى الى بلاد الاغريق للانضمام الى جيشك ومحاربة أعدائك . وثق أنني دائماً صديقك المخلص الأمين . »

* * *

واضطر كليومينس الى النزول على رغبته وقبول شروطه ، لأن الضرورة كانت ترغمه على ذلك

وبعد أسابيع ، وصلت الرهائن الى الاسكندرية ، وغادرها جيش بطليموس في اليوم التالى الى بلاد الاغريق

* * *

وكان الاسبارطيون يعانون مشقات هائلة في الدفاع عن وطنهم ، بالرغم من أنهم كانوا رجال حرب وكفاح

وحاول كليومينس ، عندما وصلت اليه النجدة المرسلة من مصر ، أن يستعيد المدن التى فقدها ، فكر على أعدائه مرة بعد مرة . ولكن المقدونيين تغلبوا عليه وهزموه في معركة سيلازيا سنة ٢٢٢ ق . م

فاضطر الى أن يخرج من موطنه هائما على وجهه ويطلب النجاة في ديار غير دياره

فأبحر الى الاسكندرية ، عاصمة البطالسة في ذلك الوقت ، ونزل مع حاشيته ضيفاً على صديقه وحليفه بطليموس الثالث

ورحب به ملك مصر . وأعاد اليه أمه وزوجته وأولاده وأنزلهم في قصر شاهق على شاطىء البحر ، وعلى مقربة من القصر الملكي

وكان بطليموس الثالث ملكا عادلا محبوباً من شعبه ، الذى اطلق عليه اسم « المحسن » لأنه كان يعطف على الفقراء والمعوزين ، ويساعد اليتامى والمساكين ، ويرغب في أن يعيش الناس جميعاً في بحبوحة من الهناء والسعادة

وبطليموس الثالث هذا هو الذي فتح سوريا وآسيا الغربية وأعاد من بلاد فارس الى مصر تماثيل الآلهة وأسلاب المعارك التى كان دارا وقمبيز قد أخذاها من وادي النيل عند ما اجتاحته جيوشها

ولكن الأقدار أبت إلا أن تظل عابسة في وجه كليومينس الطريد.فان صديقه بطليموس الثالث مات بعد وصول الملك الاسبارطى الى مصر بشهور معدودة ، وفي سنة ٢٢٢ ق . م . وارتقى العرش بعده ابنه بطليموس الرابع وكان يكره كليومينس ويوجس خيفة منه

وعرف بطليموس الرابع في التاريخ باسم « فيلوباتور » أى «المحب لابيه» . وقد أطلق عليه الناس هذا الاسم لا لأنه كان يحب اباه، بل لأنه كان بعكس ذلك يضمر له الشر ويرقب موته . وقد قيل انه دس له السم في الطعام لكى يخلفه على العرش

وكان أول عمل أقدم عليه الملك الجديد على أثر تبوئه عرش مصر ، آن أمر باعتقال كليومينس وأسرته وحاشيته وزجهم جميعاً في السجن ، بحجة ان ملك اسبارطة السابق يعلل النفس بانتزاع السلطة

من البطالسة وبسط سلطانه على مصر

* * *

وكان بين رجال كليومينس الذين فروا معه من اسبارطة الى مصر رجل شجاع يقال له « بانتيوس » . وهو من المقربين الى الملك المهزوم ومن أنصاره المخلصين ، بل أشد انصاره اخلاصا له ورغبة في استرجاع عرش اسبارطة وطرد المقدونيين من بلاده

وفي الفترة التى انقضت بين وصول الملك وحاشيته الى مصر ، والقبض عليهم وزجهم في السجن، عرف بانتيوس الاسبارطي فتاة من وصائف القصر تدعى ديمتريا . وهي اغريقيــة ارسلتها برنيس اخت بطليموس الثالث الى اخيها واوصته بها خيراً لانها يتيمة الابوين ولان أمها كانت خادمة مخلصة لبرنيس زوجة انطيوخوس الثالث ملك سوريا

أحب بانتيوس الفتــاة وبادلتــه الحب . واقسم كل منهما يمين الاخلاص للآخر ، وتعاهدا على الزواج عند ما تعود المياه الى مجاريهـا ويرجع الملك كليومينس الى اسبارطة

ولـكن أماني الحبيبين وآمالهما أصيبت بضربة قاسية عند ما انتقل بطليموس الثالث الى العالم الآخر وخلفــه ابنه بطليموس الرابع على العرش ، فقلب ظهر المجن للاسبارطيين وألقاهم في أعماق السجون

وباتت الفتاة ديمتريا ترقب الفرص للاتصال بحبيبها وقد ألحقه الملك برفاقه ، ولـكنها لم تجد الى ذلك سبيلا . فاستولى عليها الحزن وجعلت تندب سوء حظها وتطلب من الآلهة ان تنقذ الملك السجين وعشيقها من قبضة ذلك الظالم الذى غدر بها

غير أن بعض اعوان الملك من اغريق الاسكندرية كانوا يعملون خفية لاخراجه من السجن . وشاءت الظروف ان تتصل ديمتريا باحدهم فالتحقت بالمتآمرين وساعدتهم على قدر طاقتها . ونجحت المؤامرة فخرج

كليومينس ذات يوم من السجن فجأة بعد أن أغرى الحراس واشتراهم بالمال . وتبعه رجاله وقد امتشق كل منهم حسامه واندفع الجميع في شوارع الاسكندرية داعين الناس الى العصيان والثورة

وأمام باب السجن وجد بانتيوس حبيبته الوفية في انتظاره ،فتعانق العاشقان وهمست ديمتريا في اذن الاسبارطى هذه الكلمات :

— بانتيوس . لقد ضمنت لكم الفوز بالمال بعد ان تستولوا أنتم اليوم على معاقل الجنود . فقد أخذت من قصر الملك من الجواهر والحلى ما يكفى لشراء شعب بأسره ، واقامة دولة جديدة على انقاض دولة بائدة

فطبع بانتيوس على جبين حبيبته قبلة حارة ، وانطلق وانطلقت هي معه وراء الملك كليومينس في طلب الثأر والمجد !

* * *

ولكن الآلهة كانت تحارب الملك الطريد في أمانيه ، وتعاكسه في جميع أعماله . فقد أبى سكان الاسكندرية ، وهم التجار الحريصون على اموالهم ومصالحهم ، ان ينضموا الى ذلك الغريب الثائر ، فتغلب رجال بطليموس على الاسبارطيين وقبضوا عليهم جميعاً بعد ان سقط منهم من سقط في القتال واعيدوا الواحد بعد الآخر إلى السجن

وادركوا انهم هالكون لا محالة

وكانت الفتاة ديمتريا بين الأسرى لانها ابت إلا ان تظل مرافقة لحبيبها . فحاربت معه جنبا الى جنب وآثرت دخول السجن مع من تحب على التمتع بالحرية بعيدة عنه

وعند ما اغلقت وراء الاسرى أبواب السجن وقف الملك كليومينس في قومه خطيباً وقال :

— أيها الرفاق . لقد شاءت الآلهة ان تلازمنا الهزيمة الى النهاية .

وأن يقضى على أعز أمانينا فلا أرى الآن فائدة من البقاء على قيد الحياة، بل أرى ان الموت خير لنا وأوفى ، فان الملك بطليموس الرابع سوف ينكل بنا وينتقم منا ويلقى بنا الى السباع تفترسنا ، او الى الفيلة تدوسنا بقوائمها ، او يأمر زبانيته بذبحنا ذبح الانعام في هذا السجن المظلم ، ان لم يكن قد فكر من الآن في شد وثاقنا والقائنا في البحر من أعلى أبراج قصره . ولذا فأنا ادعوكم جميعا أيها الرفاق الى أن تقطعوا حبل حياتكم بأيديكم وأبدأ بنفسي فأغمد هذا الخنجر في صدرى

فنهض بانتيوس وقال :

— أيها الملك المحبوب . لاأظن أحداً من رفاقنا يتردد لحظة واحدة في النزول على ارادتك والعمل باشارتك ، فكلنا نرحب بفكرتك.وخير لنا الف مرة أن نموت منتحرين من أن يمثل بنا جنود بطليموس فنموت كاللصوص أو الجبناء ، غير ان لي أمنية واحدة أرجو منك ان تصغى اليها

— إن أمنيتك يابانتيوس لمقضية قبل أن تفضي بها الي . فأنت أوفى الاوفياء واخلص المخلصين . تكلم !

فطلب بانتيوس من كليومينس ان لا يسمح للفتاة ديمتريا بان تقدم على الانتحار لأنها ليست اسبارطية ، ولأن الاقدار دفعت بها الى الاشتراك في تلك الحركة الثورية دون ان يحتم عليها الواجب الاشتراك فيها

ولكن الفتاة نهضت من مكانها وصاحت :

— بانتيوس ! ما كنت اظنك أيها الحبيب تقدم على امر من شأنه ان يلحق العار بمن تحب . لقد حاربت معكم وربطت حظي بحظكم وحياتي بحياتكم ، فسأموت إذاً عند ما تموتون او ابقى على قيد الحياة اذا بقيتم احياء . غير انى ارغب في أن افضي الى الملك كليومينس بسر لم ابح به إلا لك وحدك ايها الحبيب ، واعلم أيها الملك الكريم انى حملت

معي عند ما غادرت قصر الملك للالتحاق بكم ، صندوقا صغيرا يحوي ثروة كبيرة ، ذلك الصندوق هو الذي كان الملك بطليموس الرابع يحفظ فيه جواهر التاج والحجارة الكريمة واللآلىء النادرة التي يعتز بها البطالسة. وبين تلك الجواهر جوهرة جاء بهـا بطليموس الثالث « المحسن » من الشرق وكان دارا ملك الفرس يحلي بها تاجه . وقد القيت ذلك ذلك الصندوق في مكان من البحر لا يعرفه سواى ، على أمل أن يكلل النجاح ثورتكم فننتشل الصندوق من جوف اليم ونغترف من الجواهر مايلزمنا لاقامة عرش جديد على أنقاض عرش البطالسة ، واعادة عرش اسبارطة اليـك أيها الملك . أما الآن وقد قضى على آمالنا وقررت أنت وقررنا نحن أن نموت جميعاً ، فان الـكنز سيظل في مكانه ولن يعلم أحد أين دفنت جواهر بطليموس الرابع ملك مصر

***

نفذ القوم عزمهم فانتحروا جميعاً

وكان كل واحد منهم يغمد خنجره في صدره دون أن تنبعث من ذلك الصدر صرخة ألم أو حسرة أو حشرجة

وكان البادىء بالانتحار الملك كليومينس نفسه وتبعه الآخرون

وبقى بانتيوس واقفاً في مكانه ينظر الى رفاقه يتساقطون حوله كسنابل القمح

وكانت دعتريا واقفة بجانبه ترمقه بنظراتها وخفقان قلبها يشتد لحظة بعد لحظة

وعند ماسقط الجميع على الارض تناول بانتيوس خنجره من غمده ورفع يديه الي السماء وقال :

— أيتها الآلهة ، يا الهة اسبارطة ، اشهدى انى لم اتردد قط في اللحاق برفاقي . ولـكنني أردت أن اثق من موتهم جميعاً مخافة أن يبقى في احد

منهم رمق من الحياة فيعالجه أطباء بطليموس فيشفى من جرحه وبعد ان يعذبوه يموت بأيديهم !

وطاف بانتيوس على جثث رفاقه وجعل يطعن كلا منهم طعنة في قلبه

ووصل الى الملك فاذا به يتحرك فاكب بانتيوس على يده يقبلها وأغمد خنجره في الصدر الملكي

وبعد ان أيقن الرجل ان الحياة قد فارقت جميع الجثث المبعثرة حوله ، قدم خنجره الى حبيبته ديمتريا واغمض عينيه ولم يفه بكلمة

فأدركت الفتاة قصده . وبأسرع من لمح البصر اخذت الخنجر من يده واغمدته بين ثدييها

فانتزع بانتيوس ذلك الخنجر المخضب بدم حبيبته الوفية ، وطعن نفسه الطعنة القاضية وسقط على الفتاة التي احبها جثة هامدة

وكان ذلك في سنة ٢٢٠ ق م

* * *

بحث البطالسة كثيراً عن حواهر بطليموس الرابع ولكنهم لم يقفوا لها على اثر

وبقي امرها سراً من أسرار التاريخ يقترن في الاسكندرية بسر قبر الاسكندر

قلب بين حبين

دخلت « يمامة » الفتاة العربيـة الجميلة على مولاتهـا « الزباء » ملكة تدمر فألفتها مضطربة قلقة تروح وتجيء في قاعات قصرها كاللبوءة التي سدت في وجهها منافذ النجاة

— يمامة ! إنني في اشـد الحاجة اليك اليوم وسـأختبر اخلاصك ووفاءك للمرة الاخيرة في هذه الساعات العصيبة والظروف القاسية

— لقد برهنت لك يامولاتي على أن هذا القلب يتقاسمه حبان : حب الوطن وقد تمثل وتجسم في شخصك المفدى ، وحب من نوع آخر تمثل وتجسم في شخص « الربيع بن جابر » الفارس العربي الذي كان سيفه البتار ـ ولا يزال ـ دعامة قوية من دعائم هذا العرش

— إن هذا العرش مهدد بالانهيار يا يمامة والرومان على الابواب ، ولابد لي من قواد لا يعرفون في المقاومة هوادة ، ولا يتركون لليأس منفذا الى قلوبهم ، لكي أنقذ ملكي من الضياع وأنقذ شعبي من الأسر والعبودية

— وماذا تطلبين مني يا مولاتي ؟

— ان تسرعي الى الربيع بن جابر ، الى حبيبك يا يمامة ، وتحبسي نفسك معه في « قلعة العقاب » التي يقود حاميتها : يجب على الربيع ان يمنع الرومانيين من المرور ومهاجمة المدينة واقتحامها من هذه الناحية ، ووجودك الى جانبه داخل الاسوار يبعث في نفسه قوة لن يجدها وهو بعيد عنك منعزل عن الناس

— سأفعل ما تأمرينني به يا مولاتي

ـــ فاما ان يصد الربيع جيش الرومانيين الزاحف علينا من هذه الجهة . واما ان يظل معتصما في قلعته حتى ولو احاط بها الرومان من كل صوب الى ان يجيئنا الفرج من السماء !

ـــ الوداع يا مولاتي. ثقي ان الرومانيين لن يدخلوا «قلعة العقاب» وفيها عربي واحد على قيد الحياة !

* * *

كانت مدينة «تدمر» درة الصحراء وعاصمة الشرق . وكانت ملكتها «الزباء» سيدة النساء ونابغة عصرها . وبعد ان كانت المدينة خاضعة لسلطان روما العظيمة ، خلعت عنها شيئا فشيئا غبار الاستكانة والخنوع ، وحطمت قيود الذل والاستسلام ، وأصبحت بفضل الزباء مملكة مستقلة تحاكي بعظمتها ورقيها ومجدها سيدتها السابقة روما

وأبى الامبراطور « اوريليانوس » ان تظل تلك الدولة القوية قائمة وسط الصحراء تبسط سلطانها على المدن والقرى والجبال والرمال، وتتحدى روما العظيمة على ابواب الشرق

فجرد الامبراطور على الملكة جيشاً لجباً قاده بنفسه وسار لقتالها ودك عرشها والقضاء على سلطانها

ومشت المرأة على رأس جيشها المدرب لملاقاة الرجل !

* * *

من هو اوريليانوس ؟

ولد اوريليانوس من أبوين خاملين وكان شجاعاً لا يهاب الموت . فانضم الى جيش روما جندياً بسيطاً واشترك في الحروب التى خاض الرومانيون غمارها في الشرق والغرب . وما مرت سنوات معدودة حتى كان الجندي البسيط قد أصبح قائداً عظيما مسموع الكلمة محبوباً من رجاله

وكانت روما تلقي قيادها في ذلك العصر المجيـد الى الرجال الذين يحسنون السير بها الى المجد والعلا

وكان اوربليانوس من أولئك الرجال النوابغ فأصبح أمبراطوراً بعد أن كان جندياً بسيطاً

* * *

ومن هي الزباء ؟

هي ابنة الامير عمرو العربي من أمراء العراق الأباة الاحرار . زوجها ابوها من أمير تدمر فوضعت المراة نصب عينيها غاية عزمت على تحقيقها والتذرع بجميع الوسائل لتذليل الصعاب القائمة في وجهها

وكانت غايتها انشاء مملـكة مستقلة في صحراء سورية وجعل مدينة تدمر عاصمة لتلك المملـكة ودرة يتيمة بين مدن الشرق

خضع زوجها لنفوذ روما وحمل لقب « قائد روماني » ودفع الجزية لجاليانوس وأوغسطس . فهال الزوجة ان يكون الامير الشرقي ضعيف الارادة محدود المطامع الى هذا الحد . وجعلت تفكر في الاستئثار بالملك دونه ودون أسرته

ومات الزوج ذات يوم

وتهامس الناس في ذلك الوقت ان الزوجة قد ساعدت ملك الموت على ترحيل الزوج من هذا العالم الى العالم الآخر

وبقيت « الزباء » وحدها على عرش تدمر . وما لبثت ان نادت بنفسها ملكة على الشرق، وبسطت سلطانها على الاقطار المجاورة ، وغزت جيوشها ارض مصر ، ومخرت سفنها عباب البحرين الابيض والاحمر

فتطلعت روما ذاهلة خائفة الى ذلك الـكوكب الطالع في سماء الشرق ، وقرر مجلس شيوخها ان السماء لا يمكن ان يملأ فيها كوكبان ساطعان

ومشى اوريليانوس بجيشه إلى تدمر

ومشت الزباء بجيشها للقاء الغزاة

* * *

جلست الزباء على عرش تدمر فى سنة ٢٦٧ للميلاد

واشتبكت جيوشها في القتال الحاسم مع الرومانيين في سنة ٢٧٢ اى بعد خمس سنوات كاملة من جلوسها على العرش

دافعت المرأة عن ملكها دفاع الابطال ، وقاتلت الاعداء والسيف بيدها ، وكانت تتقدم الصفوف على متن جوادها ، ستنهض همم الرجال وتستحثهم على الاستبسال فى الدفاع

لكن الله الحرب خذلها في الميادين .فانهزمت جيوشها في كل مكان. واضطرت الملكة الى العودة ادراجها الى عاصمة ملكها . فاعتصمت فيها ، وجمعت داخل اسوارها بقية جيشها الباقية للدفاع الأخير

وأقام الرومانيون على تدمر الحصار من جميع الجهات . وجعلوا يهاجمون الحصون والقلاع والاسوار

وشعرت الزباء أن الساعة قد دنت ، وأن دعائم عرشها تتداعي ، وأن البناء الشامخ الذى شيدته وسط الرمال يتمايل مهدداً بالسقوط والانهيار

وجعلت تفكر فى الانتحار

* * *

تلك هي الظروف التى كانت الملكة المنكودة الحظ تجتازها عندما دخلت عليها الفتاة العربية «يمامة» الجميلة، حبيبة القائد العربي التدمرى « الربيع بن حار » وتلقت منها رغبتها في أن يدافع الربيع عن «قلعة العقاب » الى آخر نسمة من حياته وحياة رجاله

وتلك هي الرغبة الأخيرة التي سمعتها الفتاة من ملكتها وردت عليها بهذه الكلمات :

— الوداع يا مولاتي . ثقي أن الرومانيين لن يدخلوا « قلعة العقاب » وفيها عربي واحد على قيد الحياة !

* * *

أسرعت الفتاة الى حبيبها العربي فوجدته في قلعته يعد العدة للدفاع ، وقد أوصد أبواب القلعة وحشد فيها رجاله وعددهم مائة بطل صنديد وقرم عنيد

— ما جاء بك الى هنا أيتها الحبيبة ؟ وما هذه الفكرة الطائشة ؟ أتقيمين بين هؤلاء الجنود وراء هذه الاسوار التي سيحاصرها الرومانيون اليوم أو غداً ، والتي لن تصمد امامهم اكثر من اسبوع أو أسبوعين ؟

— نعم ! سوف أقيم بينكم يا ربيع ، لان هذه الاسوار يجب أن تصمد ما دمتم وما دمت معكم على قيد الحياة ! لن تفتح أبواب هذه القلعة للعدو ولن تسلم نفسك اليه ولن يلقى أحد منكم السلاح مادامت في عروقنا دماء تجري . أتقسم لي يا ربيع أنك لن تخون الزباء ولن تساعد على سقوط تدمر في قبضة الرومانيين ؟

— اقسم يا حبيبتي !

— لنستعد اذاً للدفاع وليكن ما هو كائن !

* * *

حاصر الرومانيون المدينه وهاجموها بخيلهم ورجلهم ومعداتهم . وسقطت القلاع في ايديهم الواحدة بعد الأخرى وظلت «قلعة العقاب» وحدها قائمة في طريقهم ، تناطح السحاب بابراجها ، وتتحدى جموع الجنود باسوارها المنيعة

وطلعت الشمس ذات يوم على القلعة العاصية فاذا بحركة غير عادية تبدو بين الجنود المحاصرين فيها

نادى الربيع بن جابر حبيبته وشريكته في الدفاع ، يمامة العربية ، وقال لها بلهجة تنم على قلق واضطراب شديدين :

— يمامة . لقد أصبحت الحالة لا تطاق : الزاد قد نفد من مخازن القلعة ولم يبق لدى الجنود ما يقتاتون به وما يدافعون به . فقد نفدت ايضاً النبال واصبحت الاقواس لافائدة ترجى منها ، وأشعر بالعصيان يدب بين الرجال . فما رأيك ؟

— لقد أعددت للامر عدته يا ربيع . وحسبت لكل طارىء حسابه . انت تعلم ان هذا القلب يخفق بحبين : حبك انت وحب الملكة الزباء . ولن يكون في وقت من الاوقات خائنا لاحدكما . دعني اعالج الحالة بنفسي

— انني لا أخفى عنك عزمي يا يمامة : لن أسلم نفسي للاعداء . فاذا شاءت الاقدار أن يقتحم الرومانيون القلعة فانني سأنتحر داخل هذه الاسوار . ولكن . . .

سكت الربيع وتضاعف اضطرابه . فأمسكت يمامة بيديه وسألته بلهفة :

— ولكن . . ؟

— اسمعي يا يمامة : لقد أوفد الي الرومانيون مساء امس رسولا يحمل الي شروطا مشرفة . انهم يعرضون علي تسليم القلعة ويعاهدونني على أن يبقوا علي وعلى رجالي ، وان يطلقوا سراحهم فيرحلوا الى الصحراء

— وأنت ؟

— وأنا أيضا . انهم لن يأخذوني الى امبراطورهم اسيراً

سكتت يمامة ايضا . ثم قالت :

— دعني افكر قليلا في هذا . وغدا نبعث الى العدو بالجواب

* * *

غدا . . .

ان شمس ذلك الغد لم تشرق على رجال القلعة وهم احياء . فقد عمدت يمامة العربية الابية الى تسميم المياه داخل الاسوار فشرب منها الرجال جميعهم وقضوا نحبهم في تلك الليلة الليلاء

وفي صباح اليوم التالي كانت يمامة وحدها على قيد الحياة

وأبت الفتاة ان تخون مليكتها . . .

وابت ان تخون حبيبها ...

فآثرت الموت على البقاء !

شاورت قلبها الموزع بين حبين : حب الشاب الجميل الذى اصطفته من بين الرجال ، وحب المليكة الشقية التي اغدقت عليها النعم

إن الزباء لن تعيش بعد انهيار ملكها ، فهل يحق ليمامة ان تتمتع بنور الشمس والمليكة في عالم الارواح ؟

والربيع بن جابر؟ لوفتح للرومانيين ابواب القلعة لابقوا على حياته ولكنها حياة ملطخة بالعار . . . فهل تبقى يمامة بجانبه وهو القائد الخائن لمليكته ، الموالي لاعداء تدمر ؟

حار قلب الفتاة في بادىء الأمر بين حلين : حل فيه حياة ذليلة ، وحل فيه موت شريف

فآثرت الفتاة الموت على الحياة

دست السم لحبيبها ولحامية القلعة. وبعد ان وثقت من موتهم جميعاً ، عمدت الى خنجرها فأغمدت نصله في صدرها وسقطت مضرجة بدمائها فوق جثة حبيبها الهامدة

* * *

عشرة ايام مضت والرومانيون ينتظرون من قائد القلعة رده على شروطهم التي حملها اليه الرسول

ولم تفتح ابواب القلعة في الايام العشرة . ولم يظهر احد من فوق الاسوار والابراج

غير ان اسراباً من النسور كانت تحوم حول القلعة.وتصاعدت من وراء الجدران رائحة كريهة ... رائحة لاتنبعث إلا من الجيف والرمم

حينذاك أدرك الرومانيون ان في الامر سراً . فهاجموا القلعة وحطموا ابوابها واقتحموا اسوارها

فاذا بهم يستولون على مقبرة اموات لا على قلعة احياء . وإذا بهم أمام اكداس من الجثث وقد دب اليها الفناء وبينها جثة فتاة تعانق جثة شاب : عامة العربية تعانق الربيع بن جابر العربي

واطلق الرومانيون على قلعة العقاب منذ ذلك اليوم «قلعة الاموات»

وكان ذلك في سنة ٢٧٢ للميلاد

* * *

أما الزباء فقد ساقها الرومانيون اسيرة الى روما. وقيل انها ماتت في الطريق . وقيل انها عرضت على الشعب الروماني فماتت في روما حزينة كئيبة

واما اوريليانوس فقد سار بعد ذلك النصر المبين بثلاثة أعوام لمحاربة الفرس فقتله احد عبيده في سنة ٢٧٥

وكان ذلك العبد المعتوق أحد الجنود الذين حاصروا قلعة العقاب ـ او قلعة الاموات في تدمر

زبيدة

نام الأمويون عن حقوقهم فضاعت تلك الحقوق . وأغفلوا تدبير شؤونهم فدارت عليهم الدائرة . وتلك عاقبة النيام الغافلين !

* * *

قال الطبري في تاريخه إن نصر بن سيار ، لما كثرت الخوارج وبلغه أن أبا العباس بن محمد الامام من آل أبي الطالب — وهو الذي لقب فيما بعد بالسفاح — مختبيء بدار مسيلمة بالكوفة ، كتب الى أمير المؤمنين مروان بن محمد بن مروان بن الحكم يخبره أن الناس مرادهم أن يبايعوا العباس . وقال شعراً :

أرى تحت الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكى ... وان الحرب أولها كلام
فان لم تطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيام

* * *

كان الأمويون نياماً !

فقد بايع الناس أبا العباس بالكوفة . وسار بجمع غفير من الأنصار الى دمشق . فالتقى الفريقان — فريق العباسيين وفريق الأمويين — في معارك عديدة ، وبطش ابو العباس وأشياعه بخصومهم ، وتولى ابو مسلم الخراساني مهمة ابادة الامويين فتتبعهم في كل مكان . وظن العباسيون بعد مذبحة أبي فطرس ومصرع مروان في مصر ،

أنهم أتوا على آخر الامويين وأنه لم يبق منهم أحد على قيد الحياة ، وكان ذلك في عامى ١٣١ و١٣٢ للهجرة - ى ٧٤٩ و٧٥٠ للميلاد

ولكن الاقدار شاءت أن يفلت من يد السفاحين شاب حفظ له التاريخ أجمل ذكرى بما أسسه من دولة فنية في الأندلس ، وما تركه من أثر نفيس في قرطبة

ذلك الشاب هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، المعروف بعبد الرحمن الداخل

لا أتولى في هذه الواقعة أن أنقل للقراء ما شرحه التاريخ وأثره عن حياة ذلك البطل العربي ، الذى جدد شباب الدولة الاسلامية في الاندلس ورفع منار العلم والادب في بلاد الغرب ، ولكنا كشف لهم الستار عما أهمله التاريخ من أمر نجاته من الموت وكيفية فراره

أفلت عبد الرحمن من المذبحة وكان في العشرين من عمره ومعه أخوه الصغير

ولجأ عبد الرحمن وأخوه فى بادىء الامر الى قرية حقيرة على ضفاف الفرات ، وتخفيا هنالك مدة من الزمن في منزل رجل أمين من صنائع آبائهما واجدادهما ، ضافهما ونصب نفسه حارساً على حياتهما وراحتهما

وكان لصاحب المنزل فتاة تدعى زبيدة يانعة الشباب ، ممتلئة الجسم ، لم تبلغ السادسة عشرة من عمرها ، تقوم بالاعمال المنزلية في غياب أبيها ، الذي كان يزاول صيد الأسماك في الفرات

ووقعت عيناها على عبد الرحمن الغض الاهاب ، الجميل الطلعة ، فملقته وأقامت من وراء خدرها ترقبه وترعاه في روحاته وغدواته

خرجت الفتاة يوماً لتتري ماء واذا بأعلام سوداء بدت لها على ضفة النهر اليسرى ، فدرت أنها طلائع لشراذم من جنود العباسيين

الذين كانوا يجوبون البلاد طلباً لبقايا بنى أمية . فدلها قلبها على مصاب يتهدد من تهواه ، فأسرعت الى منزل أبيها وكان غائباً ، وفكرت في أن تنبه عبد الرحمن وأخاه الى الخطر الداهم

لكنها فطنت الى أن بتنبيهه الى الخطر خطراً على حبها وحرماناً لها من استجلاء ذلك المحيا . فأنتجت لها فطنتها أن ترافق من تهواه في هربه ونقاسمه آلام النفى ومشاق الاسفار

ولكن بدا لها من جهة أخرى أنه يأبى عليها وهي فتاة أن ترافقه في فراره ، فعمدت الى حيلة هداها اليها القلب المحب — وقد طالما فتق الحب حيلا — وهي أن تتستر بلباس الرجال فلا يبقى لحبيبها — وهو لم ير وجهها قط — من عذر في رفض معاونتها اياه ومقاسمتها أخطاره

خلعت عليها لباس أبيها ، وهرولت الى غرفة الحبيب فنبهته الى الخطر المحدق به وعرضت عليه أن يستصحبها في هربه

تمنع عبد الرحمن في بادىء الامر قائلا انه يؤثر الفرار بصحبة أخيه الصغير دون أن يعرض أحداً من أصحابه وأعوانه للهلاك ولكن الفتاة ألحت عليه طالبة أن تكون دليلا له في الصحراء . فقبل الشاب شاكراً مسروراً ، وخرج الثلاثة من منزل الصياد قبيل غروب الشمس وألقوا بأنفسهم في النهر لاجتيازه سباحة

نزلوا الى الفرات وهم ثلاثة . لكن الفتى الصغير غرق في النهر ، ويقال ان سهماً أصابه من مطارديه زبانية العباسيين ، فلم يصل الى الضفة الاخرى الا عبد الرحمن ورفيقته زبيدة

* * *

اجتاز الفتيان قفار الشام فجبال لبنان ففيافي فلسطين فصحراء سيناء شريدين تائهين ، يختفيان نهاراً ويسيران ليلا ، متسللين كاللصوص ، عائشين من الاستعطاء واستجداء الاكف حتى بلغا مصر وجاوزا القيروان

وهنالك كادت سيوف العباسيين تنالهما لأن العيون والارصاد كانت قد نقلت الى الحاكم العباسي خبر الشريد الطريد . انما قدر الله أن يفلت ذلك البطل ، وكان قد لحق به خادم أمين يدعى « بدر » فتابع الثلاثة ـ عبد الرحمن وبدر وزبيدة ـ سفرهم ، وبلغوا المغرب حيث نزلوا على بعض أعوان الامويين ومريديهم من البربر

* * *

بعث عبد الرحمن بالفتاة والخادم ـ وهو لا يزال يظن زبيدة رجلا ـ الى من كان بالاندلس مقيما على الولاء لبنى أمية

وكان أهل الاندلس يومئذ على شقاق وانقسام ما بين عربي يطالب بالسيادة ، وبربري ينازع العربي فيها ، زد على ذلك انقسام العرب أنفسهم الى مضرى ويمنى

أخذ بدر يبث الدعوة لمولاه ، وعرفت زبيدة أن تستجلب القلوب الى من كان قلبها يهواه ، وأن تحمل رجال الجيش الذين كانوا من أصل شامي على أن يبايعوا سليل بني أمية ، فأرسلوا وفدا منهم للترحيب به واستدعائه الى الجلوس على عرش آبائه . وكان ذلك في أواخر الشهر التاسع سنة ٧٥٥ ميلادية

تغلب عبد الرحمن على أعدائه ومنافسيه واستقام له الامر ، فجدد مجد العرب في الغرب ، وبنى لعاصمة ملكه قرطبة سورا جديدا ، وشيد مسجدها الاثري ، وقطع الخطبة للخليفة العباسي وهو حينذاك المنصور الذي كان يهاب جانبه ويلقبه بصقر قريش

وعرف عبد الرحمن في التاريخ منذ ذلك العهد بعبد الرحمن الداخل ، أي الأول . لكنه لم ينس في عزه ومجده شريكه في شقائه وآلامه ، الفتاة زبيدة ، فشاء أن يرفعها ، وهو لا يزال يظنها رجلا ، الى مصاف الوزراء

خلت الفتاة بأميرها بعد أن خلعت عنها ثياب الرجال، واذا به يرى فتاة ترنو بعينيها اليه . ولـكن عبد الرحمن الذى عرف كيف يستعيد مجد ابائه ،لم يعرف أن يقرأ ما فيهما من غرام ، وما تنمان عليه من وجد وهيام . فأعظم نفس الفتاةوبأسها ، ودعا رجال جيشه وعظماء قواده وفاخرهم « بفارسه الجميل » ، ذلك هو اللقب الذى حلعهعبد الرحمن على « زبيدة »

ولـكن الفتـاة لم تركب متن الاهوال وتهجر خدر أبيهـا ووطنها طمعاً في نيل شهرة أو احراز جاه ، انما حملها الحب وحده على جناحيه فجرت تقطع الصحارى والديار لتنعم يوما بلقاء من تحب

على أنها قرأت فى عينى عبد الرحمن سطورا غير التى كتبتها هي في عينيها. فأصابها من ذلكغم وهم،وأدركها وجد سار بها في طريق اليأس

لـكنها عللت النفس بالآمال وباتت ترقب ساعة اللقاء ، ولم تدرأن عبد الرحمن كان منصرفا عنها الى رفع شأن مملـكته،والحنين الى بلاده ومسقط رأسه ، وقد نم على حنينه الأبيات الآتية التي نظمهـا في ديار الغربة :

ايها الراكـب الميمم أرضي ... أقر منى بعض السلام لبعضي
إن جسمى كما تراه بارض ... وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البـين بيننا فافترقنـا ... وطوىالبينعنجفوني غمضى
قد قضى الدهر بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي

* * *

فـكر عبد الرحمن في أمر الفتاة زبيدة ، وأراد أن يعقد زواجها على قائد من كبار قواده ، أو أمير من أمراء مملـكته ، ففاتح فى ذلك صديقه القائد الشاب عبد الملك بن قيس الغسانى ، فقبل الرجل شاكرا فرحاً ما عرضه عليه مولاه

ولما افضى عبد الرحمن الى صديقته زبيدة بما يحول فى خاطره وبما عزم على تنفيـذه من امر زواجها ، طرحت نفسها على قدميه وبللتهما بالدموع قائلة :

— افعل ما شئت يا مولاى فالامر أمرك والاراده ارادتك !

وأمر عبد الرحمن باقامه الافراح في القصر احتفالا بزفاف زبيدة، ودعا أمراء مملكته وقواد جيشه إلى وليمه تصدرها بنفسه ، فبجلت قرطبة في تلك الليلة بأبهى حلة من الانوار

لـكنهم بحثوا عن زبيدة فلم يجدوها في خدرها . . . بل وجدوها في حجرة الملك ، تذرف الدموع وتتأوه

فأبلغوا الأمر إلى عبد الرحمن الداخل ، وصعد الملك بنفسه الى حجرته ، واذا به أمام الفتاة المسكينه تسلم الروح

رفعت اليه نظرها ، فزالت الغشاوة عن عينيه وقرأ في ذلك النظر ما كان يجب أن يقرأه من زمن بعيد !

عرف عبد الرحمن أن زبيدة لم تشاركه آلام الغربة ومشاق السفر إلا لأنها كانت تحبه ، وانها لم تلق بنفسها في المخاطر والأهوال إلا على أمل الوصال

لـكنه عرف ذلك بعد فوات الوقت ، فأكب على الفتاة يقبلهـا ، وقد علا جبينها اصفرار الموت

رفعت اليه زبيدة نظرتها الاخيرة . وتمتمت كلمات لم يفهم منها عبد الرحمن إلا كلمة واحدة :

— السم ! السم ! . .

فأخذ رأس الحبيبة المسكينه بين يديه ، وضمه الى صدره، فلفظت زبيدة نفسها الاخير على ذلك الصدر ، صدر الرجل الوحيد الذى أحبه

قلبها ، والذي لم يفطن الى ذلك الحب إلا بعد ان توقف قلبها عن الخفقان

وساقطت الدموع غزيرة من عيني عبد الرحمن الداخل ، البطل العظيم ، الذي عرف أن يدبر شؤون مملكة بأسرها ، ولكنه لم يعرف أن يداوي قلباً جريحاً

فوضع قبلة أخيرة على جبين رفيقته في الحرب ، وتذكر ذلك البيت من الشعر الذي نظمه لوطنه :

قد قضى الدهر بالفراق علينا   فعسى باجتماعنا سوف يقضي

كوثر

أرسل خمارويه بن احمد بن طولون في طلب « ابن يعقوب » الطبيب القبطي الذي يقر الجميع بعلمه وبراعته وقال له :

— يا ابن يعقوب . انى أضع فيك أملى وثقتى . لقد قيل لى انك الرجل الوحيد الذى فى مقدوره أن يشفى زوجتى المحبوبة كوثر من الداء المجهول الذى تشكو منه . وكوثر يا ابن يعقوب نصرانية النشأة مثلك، اعتنق أبوها القبطى الاسلام فحذت حذوه . ووقع عليها اختياري فاتخذتها زوجة لى . وأحللتها بين نسائى مكانة سامية . فهي أحبهن الي وأبعدهن سلطانا علي . وهى الآن مريضة ولن أبخل بمال أو جاه على من يشفيها من مرضها . فكن أنت ذلك الطبيب الشافي ولك مني ما تريد !

فأجاب ابن يعقوب :

— سأكون عند حسن ظنك يا مولاي . وسأبذل في سبيل شفائها علمي ووقتى ومهارتي !

***

تولى خمارويه الحكم في مصر بعد موت أبيه أحمد بن طولون في سنة ٢٧٠ للهجرة الموافقة لسنة ٨٨٣ للميلاد . فنسج على منوال أبيه النابغة العظيم ، في ادارة شؤون مملكته وتوسيع حدودها ، واعلاء كلمة الطولونيين في الاقطار الاسلامية ، وتشييد المساجد والقصور في مصر ، واقامة العدل بين الرعية ، ومنافسة الخلفاء في البذخ والترف وكان جنديا شجاعاً وقائداً محنكا واداريا حازماً . يعمل لتقوية

دعائم ملكه ويستغل مواهب النوابغ من رعاياه ، أياً كان دينهم وأياً كان موطنهم

قيل له ذات يوم ان الفتاة كوثر ، ابنة أحد رجال الحرس ، اعتنق الاسلام في عهد ابن طولون ، ابرع بنات مصر جمالا ، وأفتكهن لحظا. فأرسل في طلب ابيها ، ورغب اليه في اتخاذ ابنته زوجة له . وما اقامت كوثر في قصر خمارويه بضعة ايام حتى كان الطولونى قد أخذ بسحر عينيها ، وشعر بأن تلك المرأة المصرية السمراء قد ملكت حواسه وقيدت قلبه بسلاسل الحب . فأضحى لها عبداً ذليلا ، وأضحت له خادمة طائعة

ولكن القصر كان يعج بالنساء اللواتي جيء بهن من مصر والشام وبلاد الكرج والشركس وغيرها من الانحاء . فجعلت كوثر العاشقة المعشوقة تتميز غيظا ، وتتقلب على جمر الغيرة ، وتنظر بعين الكره والغضب الى أولئك النسوة اللواتي يشغلن زوجها المحبوب عنها من وقت الى آخر . وهى التى كانت تود ان تستأثر به لنفسها ليلا ونهاراً

ذاقت كوثر انواع الآلام النفسية ، والعذاب المبرح القاسي الذي يعرفه العاشقون المتيمون ، والذى يذيب الجسم ويفقد الصواب

وفي صبيحة يوم شديد القيظ ، سمع سكان القصر صياحاً عالياً ينبعث من خدر الزوجة المحبوبة

وخرجت كوثر الى القاعات الرحبة . وجعلت تعدو فيها صارخة باكية ضاحكة ثائرة

وهكذا انتهى الحب بها الى الجنون !

* * *

مرت أيام على ذلك الحديث الذى دار بين خمارويه والطبيب القبطى ابن يعقوب . وكان الزوج لا يفارق زوجته لحظة واحدة .

يرقد بجانبها ويهدىء ثورانها ، دون ان يفطن إلى الحقيقة المؤلمة ، وهى أن زوجته المحبوبة قد جنت من شدة حبها واسه الجانى عليها !

وقال الطبيب القبطى كلمته التى أملاها عليه العلم : « لا سبيل الى الشفاء إلا بواسطة علاج خاص ينفذ بدقة وعناية . واذا كان خمارويه بن احمد بن طولون يرغب فى القيام بعمل يعيد الى زوجته عقلها الشارد الضائع ، ويسجل له الايادى البيضاء إلى الأبد ، ويجعل الاحقاب تتناقل اسمه مصحوباً بالدعوات الطيبة ، ويترك في مصر ذكرى لن تمحوها الدهور في المستقبل ، فعليه أن ينشىء في عاصمة ملكه داراً لمعالجة المتوهين والمجاذيب والمجانين ، وأن يفتتح الدار بنفسه ، ويدخل اليها زوجته المحبوبة لكى تخرج منها بعد مدة من الزمن وقد شفيت مما ألم بها ! »

فشيد خمارويه تلك الدار التى أشار الطبيب القبطى بانشائها ، فعرفت باسم « المارستان » وقد عزا المؤرخون خطأ فضل تشييدها الى أبيه احمد بن طولون

وأول من دخل « المارستان » للمعالجة « كوثر » القبطية المسلمة ، زوجة خمارويه ، وقد خرجت من الدار سليمة العقل والجسم معاً !

وعادت كوثر الى قصر زوجها ، وعاد معها الحب ، وأهمل خمارويه نساءه الكثيرات من أجل الحبيبة المختارة

فحنقن عليه ، وجعلت اكثرهن غيرة وأبعدهن حسداً وأمهرهن في دس الدسائس وحبك المكائد توغر صدور النساء الأخر ، فأخذن يتآمرن مع رجال الحاشية والحرس ، ويبذلن في سبيل ذلك المال والجمال ، فتكونت منهن ومن شركائهن عصبة شريرة للفتك بخمارويه واغتياله عندما تسنح الفرص

* * *

في ١٩ رجب سنة ٢٧٩ للهجرة الموافقة لسنة ٨٩٢ للميلاد ، بويع بالخلافة أبو العباس بن احمد الموفق المعروف بالمعتضد بالله وهو السادس عشر من الخلفاء العباسيين

وعزم خمارويه بن احمد بن طولون على ايفاد رسول من لدنه يحمل الى الخليفة الهدايا الثمينة . فارسل في طلب صديقه الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصاص ، وأبلغه قراره في ايفاده رسولا الى المعتضد بالله . فتقبل الجصاص قرار مولاه بالرضا والارتياح ، وانصرف من القصر على أن يعد العدة للسفر الى مقام الخليفة

وخطر له خاطر وهو في طريقه . فجعل يفكر في وسيلة لاستغلال ذلك الخاطر واحراز المغانم من الخليفة ومن خمارويه في آن واحد

كان ابن الجصاص يعلم أن لخمارويه ابنة حسناء تدعى « قطر الندى » وأنها أجمل نساء عصرها على الاطلاق . فعزم على أن يعرض على المعتضد اتخاذها زوجة لابنه علي ، ليأمن العباسيون في مستقبل الايام شر الطولونيين ويخمدوا فيهم ، بواسطة ذلك الزواج ، التمرد والعصيان

وبعد ايام ، شد ابن الجصاص الرحال الى المعتضد بالله العباسي ، ومعه « الهدايا من العين عشرون حملا على بغال وعشرة من الخدم وصندوقان فيهما طراز وعشرون رجلا على عشرين نجيبا بسروج محلاة بفضة كثيرة ومعهم حراب من الفضة وعليهم أقبية الديباج والمناطق المحلاة وسبع عشرة دابة بسروج ولجم منها خمسة من الذهب والباقي من الفضة وسبع وثلاثون دابة محملة أشياء أخرى كثيرة . »

وصل ابن الجصاص الى المعتضد بالله . فتقبل الخليفة هدية صاحب مصر وخلع على الرسول وعلى سبعة أشخاص معه

ثم أفضى ابن الجصاص الى الخليفة بخبر الفتاة ، وقال له ان لخمارويه ابنة فاتنة خليقة أن تكون زوجة لولي عهد الخلافة ، علي ابن المعتضد بالله

وما إن سمع منه ابو العباس هذا حتى انتفض وقال :

— لقد بلغنى خبر الحسناء يا ابن عبد الله . فأعهد اليك الآن في أن تطلبها من خمارويه زوجة لى . ان علياً ليس فى حاجة الى زوجة كقطر الندى ، فهي تليق بالمعتضد بالله !

ونفح الخليفة رسول خمارويه بعشرة آلاف دينار ، وألح عليه بوجوب العودة الى مصر على جناح السرعة ، لابلاغ الطولونى رغبة المعتضد بالله وارادته

* * *

مضت سنة ، ثم أخرى . . .

وفي محرم سنة ٢٨٢ للهجرة ، الموافقة لسنة ٨٩٥ للميلاد ، وصل بغداد موكب فخم ، يقوده ابن الجصاص الحسين بن عبد الله ، وفي وسط الموكب هودج فيه ابنة الطولوني قطر الندى ، التى أرسلها أبوها زوجة للخليفة العباسي

وكان ابن الجصاص يحمل أيضاً هدية ثمينة ويصطحب معه عم الفتاة. فكتب المعتضد بالله كتابه على قطر الندى ، وأدخلت الحرم . ثم زفت الى الخليفة في شهر ذي القعدة من تلك السنة

وقال الشاعر :

يا سيد العرب الذي زفت له ... باليمن والبركات سيدة العجم

أسعد بها كسعودها بك انها ... ظفرت بما فوق المطالب والهمم

ظفرت بمالىء ناظريها بهجة ... وضميرها نبلا وكفيها كرم

شمس الضحى زفت الى بدر الدجى ... فتكشفت بهما عن الدنيا الظلم

وولى المعتضد بالله خمارويه بن احمد بن طولون على الشام وحلب ، ورتب عليه أموالا وافرة في حكم مصر ، وقطع على نفسه عهداً بأن يعاقب كل من يتمرد على حميه ويعلن عليه العصيان

وأوفد ابن الخصاص الى مصر ، ومعه الهدايا الفاخرة

* * *

وقبل أن يصل ابن الخصاص الى مصر ، كان خمارويه قد رحل عنها الى وقت، فاقام في قصره ، في سفح الجبل الذى فوق المدينة أسفل دير مران ، وأخذ معه نساءه جميعهن وفي مقدمتهن كوثر

وكان عند خمارويه أسد رباه في قصره يمتاز عن بقية الأسود بعينيه الزرقاوين ويخلص لسيده اخلاص الكلب الامين

وكان خمارويه يعتقد أن أعداءه لن ينالوا منه منالا مادام الاسد بجانبه ، يحرسه ويرد عنه الاذى

ولكن حدث قبل رحيله عن مصر أن قالت له احدى زوجاته ، وهى أشد النساء كرهاً لكوثر :

— يقولون يا مولاى إنك تعتمد على أسدك الاليف في الدفاع عن نفسك ، وإن في عملك هذا جبنا يجب على من كان في مقامك أن يترفع عنه ! وقد اجبت من أطلعني على ذلك القول المتداول ،أنك لن تصحب أسدك الاليف في رحلتك الى الشام . فهل أحسنت أم أخطأت ؟

فقال خمارويه :

— لن آخذ الاسد معى الى الشام . وسوف يعلم أولئك النمامون أنهم هم الجبناء !

ورحل خمارويه الى دمشق مع حرسه ونسائه وغلمانه . ولكنه ترك الاسد الاليف في مصر

* * *

كانت النساء قد نجحن في احكام المؤامرة على خمارويه واشراك بعض قواد الجيش ورجال القصر فيها ، فعزم المتآمرون على تنفيذ خطتهم واغتنام فرصة وجود خمارويه في قصره بالشام لاغتياله

ومما ساعدهم على تنفيذ تلك الخطة ان الاسد الاليف الذى كان يربض دائما في غرفة سيده لم يكن معه في دمشق !

وفي أواخر ذى القعدة من تلك السنة التى زفت فيها ابنة خمارويه قطر الندى الى الخليفة العباسى المعتضد بالله بن احمد الموفق ، قتل خمارويه بيد « أبي الجيش » الذى ذبحه في فراشه فى قصره بدمشق ، بمعاونة الخدم ورجال الحرس ، وبتحريض نساء الحرم الحواسد الغيرى !

وفي ٣ من شهر ذي الحجة بلغ المعتضد بالله خبر مصرع خمارويه في دمشق ، فأمر بقتل عشرين من خدمه الذين باشروا ذبحه ، وكان « ابوالجيش » بين الذين قتلوا بأمر من الخليفة العباسى

وأوفد المعتضد بالله رسالة الى ابن الخصاص طالباً اليه ان يعود أدراجه الى بغداد فعاد اليها

* * *

بكت قطر الندى أباها المحبوب، وطلبت من زوجها الخليفة المعتضد أن يوفد الى دمشق من يأتي اليها بزوجة خمارويه كوثر التى أحبها ابوها حباً جماً

فسألها المعتضد :

— ولماذا تريدين منى يا قطر الندى أن آتى اليك بزوجة أبيك ؟

فقالت ابنة خمارويه :

— انني لا أضمر لها سوءاً يا أمير المؤمنين بل أحبها . وقد كانت في مصر صديقتى الوحيدة بين نساء القصر ، بعد موت أمى وأنا طفلة صغيرة . فاذا طلبت منك الآن أن تجيئنى بها الى بغداد ، فما ذلك الا لانني أريد انقاذها من أيدى النساء الأخر ، اللواتي سيفتكن بها ويوردنها موارد الهلاك

فرضى المعتضد بالله أن يجيب زوجته الى رغبتها ، وأوفد ابن

الخصاص من جديد الى دمشق ، وزوده بالاوامر الصريحة ، قائلا له أن يترك نساء خمارويه وشأنهن فيرجعن الى مصر أو يبقين في الشام ، وأن يعود اليه بكوثر الى بغداد

فشد ابن الخصاص الرحال الى عاصمة بني أمية . وبلغ قصر آل طولون في سفح الجبل ، فاذا به يعج بالرجال والنساء ، وقد اختلط فيه الحابل بالنابل ، وعمت الفوضى ، واطلق رجال خمارويه أيديهم في السلب والنهب ، واستولوا على نساء سيدهم وراحوا يعيثون في البلاد فساداً ويرهقون الناس ويستبدون بالعباد

بحث عن كوثر المصرية فلم يجدها

وعلم من جارية عجوز ، فى قصر خمارويه ، أن الزوجة المصرية ، خرجت من القصر على أثر مصرع زوجها ، ولجأت الى كوخ حطاب مصرى ، فى غوطة دمشق

فأسرع ابن الخصاص الى ذلك الحطاب وسأله عن كوثر ، وأبلغه أمر أمير المؤمنين باعادتها الى بغداد معززة مكرمة

فبكى الحطاب وقال :

— لأبذلن حياتي أيها المولى في سبيل العثور عليها . فقد كان ابوها جاري في مصر ، حيث كنا نصطاد السمك معاً في النيل . ولجأت كوثر الى كوخي الحقير بعد مقتل خمارويه ، ومكثت هنا مدة من الزمن ... ثم اختفت منذ ثلاثة أيام

خشى ابن الخصاص أن يعود الى بغداد متعثراً باذيال الفشل . فعزم على البحث عن المرأة ، وطاف الغوطة مفتشاً في أنحائها ، ومعه الحطاب المصرى يدله على الطريق ويرشده الى المخابىء

وبعد اربعة أيام عثر الرجلان على جثة كوثر ، طافية على مياه « بردى » وقد اكتنفها العوسج واحتضنها العليق ، فحاكت لها الطبيعة من نسيجها كفناً ، وصنعت لها من عشبها نعشاً

المجنونة

الشيخ خالد النبكي فارس مغوار وقائد محنك ، يأتمر بأمره ثلاثة آلاف رجل بعدتهم الكاملة ، وهو يسيطر على أطراف البادية من بعلبك الى حمص ، ويضع نفوذه وشجاعة رجاله في خدمة من يدفع له الثمن الذي يطمع فيه . ولكنه يميل الى «المماليك البحرية» لأن احدى زوجاته من بناتهم ، ولأن تلك الزوجة أحب نسائه اليه . وهي أم ابنته الجميلة «وسيمة» الفاتكة اللحظ ، القوية الساعدين ، التي طالما رافقت أباها الى ميادين القتال ، ونازلت الكماة الصناديد في المعارك ، من صحراء تدمر الى جبال لبنان ، ثم الى سيناء وسواحل البحر الاحمر

وأقسم خالد النبكي يمين الطاعة والولاء للملك الظاهر بيبرس البندقداري صاحب مصر ، وكان له عونا على أعدائه في جميع الحروب التي خاض هذا السلطان غمارها لاخضاع الامارات والمقاطعات العربية في الاراضي السورية . ووقع نظر بيبرس ذات يوم ، وهو يرد الزيارة لصديقه وحليفه خالد النبكي في مضاربه في سهل البقاع على مقربة من بعلبك ، على الحسناء الساحرة العينين الوضاحة الجبين . وكان السلطان قد سمع أخبارها من بعيد واعجب ببطولتها في الميادين ، فقال لصديقه:

— أي أخي خالد ! ألا تخشى على ابنتك أذى وهي سافرة تختلط بالرجال كأنها منهم ؟ لو كنت مكانك لحبستها في خدرها خوفا عليها من النفوس الامارة بالسوء . . .

فأجابه خالد :

— لا أخشى على وسيمة شيئا . فهي أخت الرجال في الحرب والسلم ،

وهي قادرة على صيانة نفسها إذا ما أراد أحد بها شراً . أما سمعت بما حدث لها منذ شهور مع الملك القاهر الايوبى ؟

— كلا . ماذا حدث لها مع ذلك الامير المغرور ؟

— لقد التقى الملك القاهر بابنتى ذات يوم وهو قادم الى دمشق ، وكانت وسيمة قد خرجت للنزهة على ضفاف بردى ، فاعترضها ذلك الامير المغرور كما تسميه ووجه اليها الخطاب بلهجة آلمتها ، فاستلت الفتاة سيفها ووثبت على ذلك الوقح ، فتراجع واستل سيفه أيضاً . .

— وهل كانا فى عزلة عن الناس ؟

— نعم . لم يكن أحد يراهما فى تلك الساعة ، فاشتبك السيفان ، وما هى الا لحظة حتى كان القاهر يطلق لجواده العنان هارباً والدم يسيل من كتفه . . .

— بورك في ابنتك يا خالد !

— وفي استطاعتك يا مولاى أن تطلب منه أن يريك الجرح الذي أصيب به في تلك المبارزة الحلوية

— كيف لم يبلغنى خبرها قبل الآن ؟

— لا يدهشنك أن يخفى الملك القاهر خبر ما حل به . أما ابنتي فانها لا تتحدث عن نفسها ولا تذكر فعالها على مسامع أحد ، ولم يطلع على هذا الحادث غير والدها . . . وأنت يا مولاى

— إن وسيمة لجديرة بأن تتبوأ المكانة اللائقة بها في قصرنا بمصر يا خالد

— إن ابنتى وأسرتها وجميع من يلوذ بها ملك لك يا مولاى !

* * *

تم الاتفاق بين الملك الظاهر بيبرس البندقداري وصديقه وحليفه الشيخ خالد النبكي على أن تدخل وسيمة حرم السلطان وتصبح زوجة

شرعية له وعلى أن يتعهد لابيها بالا يطلقها مدى الحياة

ولكن الفتاة قابلت ذلك القرار بالامتعاض . ثم ثارت على أبيها وصاحت به قائلة :

ــ ان الفتاة التى تمتشق الحسام وتنازل الفرسان وتقارع الابطال في الحروب والغزوات ، يحق لها يا أبى أن تختار الرجل الذى تريده زوجاً لها بنفسها وبملء ارادتها . وابنتك لا ترغب في حياة القصور وان كانت قصور الملوك والسلاطين . لقد نشأت في الصحراء وترعرعت في الفلاة ، أتسلق الجبال الشاهقة ، وأهبط الوهاد السحيقة ، وامرح في السهول المترامية الاطراف حرة طليقة كالهواء الحر الطليق ! وانت تريدنى الآن زوجة ، بل أمة لرجل يحبسني وراء الاسوار وفي ظلمات الخدور . ان هذا لن يكون يا أبى !

فوجىء خالد بتلك الثورة التى لم يكن ينتظرها من ابنتــه وفلذة كبده . ولكنه أدرك خطأه ، وأقر للفتاة بانه تسرع في القبول . ثم جعل يلاطفها ويبسط لها الاسباب التى يجب عليها من أجلها أن تضحى بنفسها في سبيل أسرتها وعشيرتها وبني قومها . ومما قاله لها :

ــ أي بنيتى الحبيبة العزيزة ، أعلم علم اليقين أنك لست كغيرك من ربات الخدور لانك قوية الارادة والعزيمة ، وانني لواثق بأنك سوف تسيطرين على زوجك وتملكين قياده . فاذا ما أصبحت يا وسيمة زوجة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى صاحب مصر وسيد هذه البلاد ، فان أسرتك سوف تبسط سلطانها أيضاً على هؤلاء الامراء والزعماء الذين يحيطون بنا ويرهبون جانبنا . . . ثم ان هناك أسباباً أخرى . . .

فقاطعت الفتاة أباها صارخة في وجهه :

ــ ولكني أحب ابن عمى يا أبى ! أحب ابن عمي سليمان حباً عظيما ، حباً ملك منى الفؤاد والحواس ، حباً يجب أن ينتهى بالزواج ،

وسليمان هو الزوج الذى أعلل النفس به وأريده لي رفيقا فى الحياة . . . فى الحياة الحرة كما نريدها نحن أن تكون ، لا كما يريدها سكان القصور وأبناء المدن ! كلا . ان ما اتفقت عليه يا أبى مع الملك الظاهر لن يكون أبداً !

* * *

كان بيبرس البندقدارى يكره الملك القاهر الايوبي ، وهو من سلالة الناصر داود بن المعظم عيسى . وكان الملك القاهر يتظاهر بالولاء لبيبرس ولدولة المماليك البحرية ، ولكنه في الحقيقة يمقت السلطان وعشيرته ويدس لهم في السر ويكيد لهم في الخفاء

كان بيبرس يعلم ذلك ويتحين الفرص للايقاع بذلك الامير الدساس الخطر. وحانت الفرصة للتخلص منه بعد أن ثبت له أن الملك القاهر يجمع حوله الاعوان والانصار ويرمي الى أغراض بعيدة المدى

فأرسل في طلبه ، على أن يوافيه في دمشق ، قائلا له انه يرغب في التداول معه في شؤون الدولة !

وكان الشيخ خالد في أثناء ذلك قد تمكن من اقناع ابنته وسيمة بأن تتظاهر بالقبول ، وتطلب من الملك الظاهر بيبرس أن يؤجل عقد الزواج الى حين ، ريثما تضع الحروب أوزارها ويخيم السلام على سورية ومصر

ووعد الشيخ ابنتـه بأنه سينتحل لها فيما بعـد عذراً ينقذها من زواج لا ترغب فيه . ولكنه كان في الواقع عازماً على القائها بين يدى حليفه القوى الجبار ، واثقاً أنها سوف ترضى بما قدر لها عندما تصبح سيدة نساء القصر الملكى بمصر

وكانت الفتاة تقيم في دمشق مع أمها المصرية ، في دار قريبة من « القصر الابلق » الذي كان ينزل فيه بيبرس عندما يحل بأرض الشام

وهناك، في تلك الدار، كانت الفتاة تلتقي بابن عمها وحبيبها سلمان . وكان العاشقان يقضيان ساعات طويلة في عزلة عن العالم، فتبث الحبيبة حبيبها نجواها ، ويفضى الحبيب الى حبيبته بما يختلج في صدره من شعور وما ينتابه من مخاوف

* * *

وفي سنة ٦٧٦ هجرية ظهر في الفضاء نجم مخيف يحيط به شعاع باهر ويتطاير منه شرر عجيب . ثم خسف القمر خسوفا تاماً فتنبأ المنجمون بان رجلا جليل القدر عظيم الشأن سوف يموت في ذلك الشهر – شهر المحرم من تلك السنة

وتساءل الناس قائلين :

– أيكون ذلك اشارة الى موت الملك الظاهر بيبرس البندقدارى، أم أن هناك رجلا آخر سيحل به القضاء ؟

وهلع الملك الظاهر من تلك النبوءة المخيفة ، وعزم على السعى الى تحقيقها في رجل سواه

وكان قد دعا الملك القاهر ذراعاته في دمشق ، فعول على قتله في الحال لكي تتحقق فيه تلك النبوءة . كما عول على الرحيل الى مصر في أقرب وقت بعد أن ينظم شئون البلاد التي اخضعها بمعونة حلفائه من أبنائها

ولكنه أراد ان تسبقه زوجته المقبلة بسيمة ابنة خالد النبكى الى مصر حيث تستعد مع نساء القصر لليوم العظيم

واصدر أوامره باعداد هودج فاخر يحمل الفتاة الى مصر مع جواريها وعبيدها وتحرسه فى الطريق كوكبة من الفرسان

ووقع هذا القرار على وسيمة وحبيبها سليمان وقع الصاعقة ، وقطعت الفتاة كل امل في النجاة . ولكنها قالت لابن عمها وهي تودعه قبل رحيلها بيوم واحد :

— ثق يا ابن العم انني لن أكون لسواك ، فان وسيمة لن تصل الى مصر حية !

* * *

وصل الملك القاهر الايوبي الى دمشق فاستقبله الملك الظاهر بيبرس بالترحيب ، وأنزله ضيفاً عليه في القصر الأبلق بجوار الميدان الأخضر ، وأمر غلمانه بأن يعدوا له ولضيفه طعام العشاء في قاعة منعزلة ، وأن يمنعوا الناس عنها في تلك الليلة

وعهد السلطان الى بعض رجاله في حراسة الأبواب طول الليل . وكان سليمان ابن عم وسيمة أحد أولئك الحراس

ودخل الملك الظاهر بيبرس الى القاعة

ودخل على أثره الملك القاهر

وجعل الغلمان يروحون ويجيئون حاملين الوان الطعام والشراب من كل ما لذ وطاب

وفجأة ، طرقت الآذان أصوات استغاثة :

— إليّ ! . . . إليّ ! . . . السم ! . . . السم ! . . .

ودخل الحراس مهرولين الى القـاعة ، فاذا بهم أمام الملك القاهر وقد سقط على الأرض وجعل يتقلب كأنه أصيب بمس من الجنون

وأشار اليهم الملك الظاهر اشارة عقدت ألسنتهم عن النطق ، فادركوا أن مولاهم دس السم لضيفه في الشراب

وبينما هم يحملون الملك القاهر الايوبي وقد أصبح جثة هامدة ، تناول الملك الظاهر بيبرس قدحه وتجرعه دفعة واحدة

وما كاد الحراس يخرجون بجثـة الضيف حتى طرقت آذانهـم صيحات المضيف :

— اليّ ! . . اليّ ! . . السم ! . . السم !

فألقوا بالجثة على الارض وعادوا مسرعين الى القاعة ، واذا بهم أما بيبرس يتلوى من الألم ويصيح :

— السم ! السم !

ثم تمتم قائلا :

— لقد اخطأت . فشربت من الكأس المسمومة التى سقيت بها الخمر لعدوى !

* * *

كانت وسيمة بنت خالد النبكى متكئة على وسادة تمسح الدموع المتساقطة كالمطر من عينيها ، وهي تفكر في حبيبها الذى قضى عليها أن تفارقه الى الابد ، واذا بصوت ذلك الحبيب يرن في اذنيها :

— وسيمة ! وسيمة !

— سليمان ! ما جاء بك الآن الى هنا وعهدى بك في القصر الأبلق؟

— وسيمة ! لن تسافرى الى مصر

— ماذا تقول ؟

— ولن تصبحى زوجة للملك الظاهر

— لا أفهم !

— لقد مات بيبرس

— مات ؟

— مات مسموما . شرب من الكأس التى وضع فيها السم للملك القاهر فمات في أثره

— وأصبحت أنا . . .

— وأصبحت أنت حرة يا وسيمة

— حرة ؟ حرة ؟

رددت الفتاة تلك الكلمة العذبة : « حرة . حرة . » ثم خفت

صوتها ، وجمدت عيناها ، وتصلب جسمها ، وعلا جبينها الاصفرار ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة بلهاء

ورنت في أرجاء الغرفة ضحكة عالية متواصلة ، ضحكة ارتعدت لها فرائص سليمان . ضحكة لا تصدر عن شخص مالك لقواه العقلية . فقد كان ذلك الخبر الفجائي الذي حمله سليمان الى حبيبته شديد الوقع عليها وهي تستعد للفراق الابدي ، للموت انتحاراً ، فلم تقو السكينة على احتماله

تمايلت يميناً ويساراً ، ثم هوت . فتلقاها ابن عمها بين ذراعيه ، ونادى الخدم وعلت الضوضاء في قاعات الدار

وعند ما صحت من اغمائها كان سليمان يضم بين ذراعيه غادة حسناء فاقدة العقل

* * *

مات الملك القاهر الذي حاول الاعتداء عليها مسموماً

ومات الملك الظاهر الذي رغب فيها مسموماً أيضا

وبقيت وسيمة بنت خالد النبكي مجنونة

كل ذلك في ليلة واحدة !

بدر الدجى

توفي محمد بن طغج الملقب بالاخشيد أي ملك الملوك بلغة أهل فرغانة سنة ٣٣٥ للهجرة ، الموافقة لسنة ٩٤٦ للميلاد ، وتولى بعده على مصر ولداه ولكن كافوراً مملوكه المعروف بالاخشيدى نسبة الى سيده ، كان صاحب الامر والنهي في المملكة إلى أن استأثر بالملك لنفسه ، في سنة ٣٥٦ للهجرة الموافقة لسنة ٩٦٦ للميلاد

كان كافور الاخشيدي من العبيد الخصيان ، اشتراه الاخشيد من من نخاس حبشي بثمانية عشر ديناراً ، فملكه الله الديار المصرية والشامية ، وأجمع المؤرخون على أنه كان نابغة عظيما وعاقلا فطناً

وقال عنه محمد بن عبد الملك الهمذاني :

« كان بمصر واعظ يقص على الناس فقال يوما في قصصه : انظروا الى هوان الدنيا على الله تعالى ، فانه أعطاها لمقصوصين ضعيفين ، ابن بويه ببغداد وهو أشل . وكافور عندنا بمصر وهو خصي ! فرفعوا الى كافور قوله وظنوا أنه يعاقبه ، فتقدم اليه بخلعة ومائة دينار وقل : « لم يقل هذا الا من جفائى له » ، فكان الواعظ بعد ذلك يقول في قصصه : لم يكن نجباء من ولد حام الا ثلاثة : لقمان ، وبلال المؤذن ، وكافور »

وقد مدحه المتنبي بأبيات كثيرة منها :

قواصد كافور توارك غيره   ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا انسان عين زمانه   وخلت بياضاً خلفها ومآقيا

وقال فيه يهجوه :

من علم الاسود الخصى مكرمة أقومه البيض أم آباؤه السود
أم أذنه في يد النخاس دامية وقدره وهو بالفلسين مردود

* * *

كان كافور الأخشيدى جالساً ذات يوم في قصره ، وحوله جماعة من رجاله وأنصاره ، فالتفت فجأة الى رئيس الغلمان وقال :

— ارسل غلمانك الى «عقبة النجارين» وليسألوا هناك عن شيخ منجم أعور . فان كان حياً ووجدوه فليأتوني به . وان كان ميتاً فليسألوا عن أولاده

فانطلق الغلمان للبحث عن الرجل ، وقال كافور لجلسائه :

— لذلك المنجم الأعور في عنقى دين لا بد من وفائه . فقد مررت به ذات يوم وكنت حينذاك عبداً رقيقاً في ملك ابن عباس الكاتب ، وكانت حالتى رثة . فلما نظر الىّ المنجم قال : ما اسمك ؟ قلت له : كافور . قال : « أنت ترتقي الى رجل كبير وتبلغ منه مبلغاً عظيماً ، ثم تملك هذه البلاد ويكبر اسمك بين العباد ! »

« فنظرت الى جيبي لأعطيه شيئاً فما وجدت سوى درهمين فاعطيتهما للرجل . ونسيته منذ ذلك اليوم . ولكني رأيته أمس في منامي ، فتذكرته وأرسلت الغلمان يبحثون عنه أو عن أولاده

« فقد ارتقيت الى الأخشيد ، وبلغت منه مبلغاً عظيما ، ثم ملكت مصر وكبر اسمى بين الناس كما تنبأ لى المنجم . ولذلك فان له في عنقي ديناً يجب علي وفاؤه كما قلت ! »

وبحث الرسل عن الرجل الاعور فى عقبة النجارين ، وعادوا الى سيدهم حاملين اليه الخبر اليقين : لقد مات المنجم وترك ابنتين : الواحدة تزوجت والثانية في انتظار الزوج

فارسل كافور في طلبهما ، واشترى لكل منهما داراً ، ونفحهما بمال كثير ، وزوج الثانية ، وادخل زوج الاولى فى حاشيته ، وأجرى على الاسرتين الارزاق وأغدق عليهما العطايا

* * *

وكان يقيم في مصر في ذلك الوقت رسام افرنجى يدعى جول بوارو Jules Poirot اعتنق الاسلام في بلاد المغرب وجعل يضرب في طول العالم الاسلامى وعرضه ، ويتقرب الى الملوك والامراء والاقيال ، ويجمع في جعبته طائفة من الرسوم النفيسة ، ويعلق على الاتجار بها في بلاده ، بعد عودته ، آمالا بعيدة

وكان ملوك المسلمين وأمراؤهم وأقيالهم يحسنون وفادة ذلك الرجل الافرنجي الغريب ، الذى فضل دينهم على دينه ، وأوطانهم على وطنه ، ففتحوا أمامه أبواب قصورهم ، وأحلوه في مجالسهم محل الاكرام والاحترام

ووقع نظره ذات يوم على فتاة بارعة الجمال ، فتبعها وتمكن من الوصول اليها . وما مضت بضعة أيام حتى كان الشاب قد علق بحبها ، فجعل يرقبها في روحاتها وغدواتها ، وما لبثت الفتاة أن وقعت من جهتها تحت سلطان الحب . فعلقت بذلك الغريب الظريف الجميل ، وتواعد الاثنان على الزواج

وصنع جول بوارو أو اسماعيل بوارو الافرنجي لحبيبته رسما بديعاً أفرغ فيه مهارته وفنه وحبه ، فجاء ذلك الرسم آية من آيات الجمال الصامت ، كما كانت الفتاة المرسومة آية من ايات الجمال الناطق !

وكتب بوارو اسمه في ذيل الرسم ، وبجانبه اسم الفتاة المحبوبة : بدر الدجى !

ولكن الأقدار كانت تخبيء للعاشقين مفاجأة قاسية . فان بدر الدجى

لم تكن غير ابنة المنجم الاعور الثانية ، التي أبى كافور الاخشيدى أن يزوجها الشاب الافرنجى الغريب ، واختار لها زوجاً من قواد جيشه المقربين اليه

ولم تجرؤ الفتاة على العصيان والتمرد ، بل اضطرت مرغمة الى الادعان والعمل بارادة كافور وارادة أختها ، فرضيت بالرجل الذى اختاروه لها زوجاً . ولكنها بكت كثيرا وبكى معها الرسام الافرنجى العاشق حظه وسعادته !

ورحل بوارو الى القيروان

وبقيت بدر الدجى مع زوجها في مصر

* * *

التقى الرسام في القيروان بالطبيب يعقوب بن كليس اليهودى الذى اعتنق الاسلام مثله ، وخدم الاخشيديين في مصر فاساء اليه كافور في ساعة غضبه ، ورحل الطبيب الي القيروان حيث التجأ الى المعز لدين الله الفاطمى صاحب بلاد المغرب

وجعل يعقوب بن كليس يوغر صدر المعز على كافور ، ويحثه على مهاجمته وانتزاع وادي النيل الخصب منه ، ونقل مركز الخلافة الفاطمية من القيروان الى مصر ، ومن ثم الى بغداد بعد طرد العباسيين منها ، لأن الخليفة العباسى المطيع لله ابن المقتدر أضعف من أن يصد جيوش المغاربة عن الديار الاسلامية الخاضعة له

وانضم الرسام الافرنجى المسلم ، اسماعيل بوارو ، الى الطبيب اليهودى المسلم يعقوب بن كليس في سعيه لدي المعز لدين الله . وجعل الشريكان يفضيان الى الخليفة الفاطمى بمعلومات يجهلها ، وتفاصيل لم يسمع بها من قبل عن امتعاض المصريين من الحكم الاخشيدي ، وميلهم الى الفاطميين الذين ينتسبون الى السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ، وعن

الكنوز الكثيرة المخبأة في بطن الارض وتحت جدران المساجد ، والتى عثر على بعضها في عهد الطولونيين وعهد الاخشيديين

وكان المعز لدين الله يعلل النفس منذ اليوم الذى آلت فيه اليه الخلافة بالاعارة على مصر وفتحها . فوجدت أقوال الطبيب والرسام هوى في نفسه ، وعزم على تنفيذ الخطة التي فكر فى تنفيذها

وحدث مرة ان خاطب الطبيب ابن كليس عن رفيقه الافرنجى وعن مهارته في الرسم. فرغب اليه المعز في الاطلاع على بعض رسومه . وجاءه بوارو بذلك الرسم الذي صنعه لحبيبته بدر الدجى عند ما كان السعد لا يزال ضاحكا له في مصر

وقع نظر المعز على ذلك الرسم فأخذ بجمال الوجه الذي يمثله، وسحر العينين اللتين تبعثان ضياء لم يعهده المعز في غيرهما من العيون

فالتفت الى بوارو سائلا :

— صورة من هذه يا ابن الكرام ؟

فأوشك بوارو ان يطلعه على أمره ويقص عليه قصته . لكن خاطراً خطر له فجأة فقال :

— هي صورة احدى نساء كافور الاخشيدى يا مولاي . وقد حدثتني عنك في خلوة من خلوات القصر في مصر . وان كنت قد صنعت لها هذا الرسم فلانني كنت عازما على المجيء الى هنا . وقد اردت أن أحمل اليك تحيتها ورسمها

فقال المعز :

— أفي مصر نساء يبلغن هذا المبلغ من الجمال ؟

فأجابه الرسام الخبيث :

— جميع نساء مصر يجارين بدر الدجى جمالا وسحراً !

فسكت المعز لحظة ثم قال :

— سوف نرى ذلك ايها الغريب . وسوف نشاهد بدر الدجى في قصرها بمصر قريباً بعون الله . فقد عزمنا على ارسال جيشنا الى ضفاف النيل

* * *

مات كافور الاخشيدي قبل أن تتدفق جيوش المعز على مصر ، وترك الملك من بعده لابي الفوارس احمد بن علي بن الاخشيد ، وذلك في سنة ٣٥٨ هجرية الموافقة سنة ٩٦٨ للميلاد

وكان القائد الفاطمي المنصور قد احتل الاسكندرية وجعل يدير شؤونها باسم الخلفاء الفاطميين

وفي سنة ٣٥٩ هجرية ، الموافقة سنة ٩٦٩ للميلاد ، اغتنم المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور العلوي الفاطمي ، رابع الخلفاء الفاطميين فرصة انتشار الفوضى في مصر ، فسير إليها مولى أبيه « جوهر » في مائة الف مقاتل لفتحها ، فدخلها الجيش الغازي بلا حرب ولا قتال

وكان القائد جوهر مملوكاً رومياً ، جاء به والد المعز من بلاد الصقالبة . فعرف في المغرب باسم «جوهر الصقلبي» وحرف المؤرخون ذلك الأسم فيما بعد فجعلوه خطأ « الصقلي » نسبة الى جزيرة «صقليا» أو « سيسيليا » كما يسميها الأفرنج

دخل جوهر الصقلبي مصر ، وخطب فيها للمعز أيام الجمع ، وأمر المؤذنين بأن يؤذنوا : «حي على خير العمل » تنفيذاً لارادة الفاطميين . فشق على الناس ذلك لكنهم صبروا لحكم الله

وأرسل الى المعز يبشره بفتح الديار المصرية ، وبالخطابة اليه في الجوامع ، وبأنه سيبني بالقرب من مدينتي الفسطاط والقطائع مدينة جديدة تليق بالمعز لدين الله ثم يدعوه للانتقال اليها مع حاشيته ومعيته ونسائه وغلمانه

ونظم ابن الهانى الاندلسي في فتح مصر قصيدة امتدح فيها القائد جوهر الصقلي مطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر   فقل لبني العباس قد قضى الأمر

وفي تلك السنة ، شرع جوهر في بناء المدينة الجديدة شمال الفسطاط والقطائع ، وجعلها مربعة الشكل ، وشيد فيها قصرين لاقامة المعز لدين الله ، وأطلق على المدينة اسم « القاهرة المعزية »

واسم « القاهرة » مستمد من كوكب « المريخ » أو « القاهر » لأن أسس المدينة المعزية قد وضعت ، عملا باشارة علماء الفلك ، وبناء على رغبة المعز ، تحت سلطان ذلك الكوكب الجبار

وبنى جوهر الصقلي ، في قلب المدينة الجديدة ، جامعاً أطلق عليه اسم « الجامع الكبير أو الأزهر » وجلب اليه العلماء والفقهاء من جميع الأقطار الاسلامية ، فما لبث ذلك الجامع أن أصبح أكبر معهد اسلامى في العالم

واستغرق بناء القاهرة ثلاثة أعوام . وعند ما أصبحت لائقة بالخليفة الفاطمي ، أرسل القائد جوهر يدعو مولاه الى القدوم للاقامة في عاصمة ملكه الجديدة

وفي سنة ٣٦٢ هجرية ، الموافقة سنة ٩٧٢ للميلاد ، قدم المعزلدين الله الى مصر ، حاملا معه من بلاد المغرب والقيروان كنوزاً لا تحصى ، وأطباقا من الذهب والفضة ، ومخطوطات نادرة وسجاجيد فارسية وجواهرثمينة . وجيء له أيضاً الى مصربنسائه وغلمانه وجياده ورفات أجداده ، بحيث لم يبق في القيروان والمغرب أثر ينم على قيام الخلافة الفاطمية في تلك الديار

ووصل المعز لدين الله الى القاهرة في شهر رمضان من تلك السنة ، وأقام في القصرين الذين أعدهما له قائده جوهر الصقلي

وجاء الى القاهرة مع القائد جوهر الطبيب اليهودي المسلم يعقوب ابن كلس . وجاء اليها مع المعز لدين الله الرسام الافرنجي المسلم اسماعيل بوارو

وتذكر المعز ، عندما حل في القاهرة ، ما نقله اليه الرسام الغريب عن الغادة الحسناء بدر الدجى ، وعن نساء مصر وجمالهن وسحرهن فارسل في طلبه ، وجاء معه صديقه الطبيب ابن كلس ، فقال المعز لبوارو :

— دلني على بدر الدجى أيها الغريب. فانني لم أجد لنساء الاخشيديين أثراً في هذه الديار ، ولم اسمع عنهن شيئاً . فماذا تعلم ؟

سكت الرسام هنيهة ، ثم ألقى بنفسه على قدمى المعز لدين الله ،وقال بصوت متهدج ولهجة المذنب النادم :

— لقد خدعتك يا مولاي . فبدر الدجى ليست من نساء الاخشيديين ، ولم تكن قط من ساكنات قصورهم ، بل هي فتاة أحببتها ففرقت الاقدار بيني وبينها ، وتزوجها رجل من رجال كافور الاخشيدي، وقد بحثت عنها في هـذه البلاد بعد عودتي فعلمت أن زوجها فر مع الفارين ، ثم قتل في عراك نشب بينه وبين بعض جنودك . فبدر الدجى تقيم الآن وحيدة منعزلة في الدار التي اهداها اليها كافور

وبعد فترة سكوت ، قال الرسام :

— والآن ، الأمر أمرك يا مولاى والارادة ارادتك . فماذا يجب أن أصنع ؟

فضحك المعز وقال للطبيب ابن كلس :

— مر لصديقك يا يعقوب بما يحتاج اليه من مال ، فاننا نجرى عليه الارزاق ونعطيه في القاهرة المعزية قصراً فاخراً . أما المرأة فاننا نتركها له . فلتكن له زوجة وليعد الى رسومه وأحاديثه الغرامية معها . وأما

نحن ، فاننا لم نفتح الديار المصرية من أجل نسائها ، بل من أجل اقامة الخلافة الفاطمية فيها ، وجمع كلمة المسلمين حول هذه الخلافة في القاهرة المعزية

* * *

تزوج جول بوارو ، أو اسماعيل بوارو ، بدر الدجى وقد جمعت الاقدار بينه وبينها بعد طول الفراق . وعاش الاثنان سعيدين في ظل المعز لدين الله

وعين الطبيب يعقوب ابن كلس وزيراً للمعز ، فكان ساعده الايمن في اصلاح شؤون الديار المصرية

وكان عصر المعز من أزهى عصور مصر

وجمع الخليفة الفاطمى الى سعة الاطلاع والعلم ، تساعاً في الشؤون الدينية ، ومهارة في الحكم والادارة

ولم يقم المعز لدين الله فى مصر اكثر من ثلاث سنوات . فقد مات في سنة ٣٦٥ هجرية الموافقة سنة ٩٧٥ للميلاد

الاميرة ايدا

الامير غليوم التاسع شاب قوى العضلات بهى الطلعة ، لم يبلغ بعد الثلاثين من عمره . دفعه حبه للمخاطرات الى اللحاق بالجيوش الصليبية الاولى ، التى تدفقت من الغرب لانقاذ قبر المسيح من ايدى المسلمين

وغليوم يبسط سلطانه على مقاطعات اكيتانيا وجسكونيا وتولوز . وهو بعيد الشهرة في وطنه فرنسا ، يخشاه الامراء الآخرون ويحسب له الفرسان في الميادين كل حساب . ولم يكن غليوم متدينا ، بل كان يهزأ بتعاليم الدين أيا كانت ، واذا كان قد انضم الى الجيوش الصليبية على رأس كتائبه الكثيرة ، فذلك لكي ينتقل من الغرب الى الشرق ، وينازل فرسان العرب في حومة الوغى ، ويطلق لجواده العنان فى جو لم يألفه من قبل ، ولكي ينظم الشعر أيضاً ، لأن غليوم التاسع كان شاعراً،وقد دون اسمه في تاريخ الادب الفرنسى بين فحول الشعراء وأرقهم احساساً وأبعدهم خيالا

وذلك الامير الشاب كان بين الامراء والاقيال الغربيين أشدهم اندفاعا في حمل النساء المسيحيات في أوربا على الالتحاق بالكتائب الصليبية ، وتجشم المخاطر والمصاعب لزيارة الارض المقدسة ، اعتقاداً منه بأن وجود الحس اللطيف في صفوف الجنود لابد أن يبعث في صدورهم الشجاعة ، ويضرم فيهم نيران الحماسة وحب التضحية

وبين النساء اللواتى حملهن غليوم التاسع على اللحاق به الى بلاد الشرق ، أميرة نمسوية تدعى « ايدا » كان فرسان اسرتها جميعهم قد انضموا إلى الجيوش الصليبية . فلحقت بهم اجابة لالحاح الامير غليوم

التاسع عليها ، وشاءت الاقدار أن تنتهى حياة تلك الاميرة النصرانية في بلاد المسلمين بسر من الاسرار التي لاتزال الى الآن غامضة ، ولم يتمكن المؤرخون بعد من تمزيق الحجاب عنها

ففى سنة ١٠٩٩ م. بدأت المعارك الدموية بين الغزاة القادمين من الغرب ، وقد اطلقوا على أنفسهم اسم «جنود الحرب الصليبية» ، وبين فرسان العرب المسلمين ومن اعتنق الاسلام معهم من أمم الشرق

وبعد أن وقعت مناوشات عديدة بين كتائب غليوم التاسع وكتائب المسلمين،وصل الامير الفرنسى الشاب على رأس جيشه إلى سهول ممتدة على مقربة من هرقلية،حيث التقى الصليبيون بجيش لجب يقوده الملك الغازي وامراء الاقاليم السورية . وكانت ايدا النمسوية بين النساء اللواتي سرن مع كتائب غليوم بغية الوصول الى أورشليم والتبرك بتقبيل القبر المقدس في المدينة التاريخية

وكانت موقعة هائلة، أظهر فيها الفريقان من الشجاعة والاستهتار بالموت والاستبسال في الدفاع،مايفوق الوصف.واسفر القتال عن انهزام الصليبيين وانتصار الملك الغازى وحلفائه انتصاراً مبيناً

وتمكن فريق من الصليبيين من الفرار ، وبينهم الامير غليوم التاسع الفرنسي ، الذي وصل مع فلول جيشه إلى انطاكية . فالتجأ إلى أسوارها وحاول هناك ان يجمع شتات كتائبه المبعثرة ويستأنف القتال مع بقية الامراء القادمين من الغرب

وبحث عن الاميرة ايدا النمسوية فلم يجدها . وعهد إلى جنوده في البحث عنها فلم يقف لهـا أحد على أثر . واعتقد الجميع أن الاميرة الحسناء قد لقيت حتفها في تلك المعركة العظيمة في سهول هرقلية ، وأن جثتها راحت طعاما للنسور والغربان

وأقيمت الصلاة على روحها . وبلغ خبر مصرعها أبناء قومها فاعلنوا

الحداد على أميرتهم المحبوبة ،ولبس أهلها عليها السواد !

* * *

ومرت الاعوام وتعاقبت الحروب . وجاءت جيوش صليبية أخرى على أثر الجيوش الصليبية الاولى . ووقعت معارك دموية أخرى في الاماكن التى شهدت المعارك الدموية السابقة

وفي ذات يوم عادت إلى أوروبا من الاقطار الشرقية اميرة بافارية كانت ترافق الصليبيين في حربهم الاولى . وقصت على النـاس حادثا اصغوا اليه مبهوتين مذهولين

قالت الاميرة البافارية ان ايدا لم تمت بل وقعت أسيرة في أيدى المسلمين في معركة هرقلية ، وإن قائد الجيوش الاسلامية حملها معه الى قصره ، فتزوجها ورزق منها أبناء لايزالون على قيد الحياة

وانتشر خبر ذلك الزواج ، وراح أبناء الاميرة النمسوية من زوجها الاول يبحثون عن حقيقة أمر أمهم ، ويستطلعون أخبارها

ولكنهم لم يقفوا على الحقيقة . . .

وفي سـنة ١١٧٠ للميلاد التقى الامبراطور فردريك برباروس الالمانى بالامير قليج ارسلان المسلم ، في بلاد الشرق ، فقال الامير المسلم للامبراطور النصراني إنه حفيد امرأة نمسوية وقعت أسيرة بين أيدي أبناء قومه ، فتزوجها جده ، ورزق منها ابنه عماد الدين ، والد قليج أرسلان صاحب هذا الحديث

ونقل هذا الخبر الى النمسا ، فعاد الناس إلى التحدث عن تلك الاميرة التى اختفت فى معركة هرقلية ، والتي يؤكد المسلمون انها لم تمت بل تزوجت أميراً من أمرائهم استولدها ابناء جلسوا من بعده على العروش

وأراد أحد الامراء النمسويين من أسرة « ايدا » أن يقف على

الحقيقة بنفسه ، فشد الرحال إلى الشرق ، وجعل يطوف على قصور الامراء المسلمين في آسيا الصغرى وسورية ، ويطرق أبواب العظماء والصعاليك ، باحثا سائلا مستفهما ، لعله يعثر على أدلة تثبت له أن الجدة التي انقطعت أخبارها واختفت آثارها قد وقعت فعلا في أسر المسلمين وتزوجت أميراً منهم . لـكنه لم يعثر على شيء ، ولم يجد في القصور التي حدثه أصحابها عن الاميرة ايدا النمسوية ما يثبت الاشاعة أو ينفيها . غير أن أميراً سوريا دفع اليه قطعة من الحرير المزركش وخنجراً مرصعاً بالجواهر وقال له : « ان هذا الخنجر كانت تحمله الاميرة التي وقعت في أسر المسلمين . وهذه قطعة من ثوبها فخذهما أيها الغريب ! »

أخذ الامير النمسوى الاثرين وعاد الى بلاده . ولـكن ابناء الاسرة لم يجدوا فيهما ما يثبت انهما كانا لجدتهم « ايدا » أو لغيرها من النساء .

وظل امر الاميرة ايدا سراً مجهولا معلقاً بين النفى والاثبات . اما الامير غليوم التاسع فقد دونه فى قصيدة رثى فيها النمسوية الحسناء التي « ماتت فى حومة الوغى في سهول هرقلية ! »

ثريا

عند ما انتهى الجندى « غليوم » من كلامه ، نظر اليه مولاه « روجيه بيكون » وسأل :

— أواثق أنت مما تقول ؟

فانحنى الجندى الى الارض وأجاب :

— نعم يامولاى !

سكت روجيه لحظة اطرق فيها مفكراً ثم رفع رأسه وسأل ثانية :

— وهل عرفتك الفتاة كما عرفتها أنت ؟

— عرفتني . . . وتذكرت تلك الأيام السعيدة التي كنت أقوم فيها بخدمتكما هناك في قصر والديكما في سكوتلندا

— ما اعمل إذن ؟ وماذا قالت لك ؟

— قصت علىّ قصتها ،وحدثتني عما قاسته من عذاب وماتجرعته من مرارة ، منذ وقوعها في الأسر إلى اليوم

— ينبغي لنا أن ننقذها . وسأضحى في سبيل ذلك بكل شيء . لن أذوق راحة بعد الآن ما دامت أختي ترسف في قيود الذل والعبودية

— سننقذها يامولاى . . . يجب ان ننقذها . . .

— سأرفع الامر الليلة الى مليكي ريكاردوس قلب الاسد لكى يرى رأيه فيه !

* * *

نهض « روجيه بيكون » وجعل يروح ويجيء فى مضربه كاسد أصابه سهم حاد

كان يحب أخته « ماری » حباً جماً . وعند ما لبي النداء العام ، وسافر مع جيش ريكاردوس قلب الاسد ملك الانكليز الى الاراضي المقدسة متطوعا في الحروب الصليبية ، ألحت عليه أخته أن يصطحبها معه ، فأجابها الى رغبتها وسافر الاثنان معاً الى السواحل الشرقية

* * *

كان السلطان صلاح الدين الايوبى قد سحق جيش الفرنجة في « طبريا » ومزق شمل الصليبيين شر ممزق ، وانتزع منهم بيت المقدس وبسط سلطان العرب على سورية ومصر من جديد

ودعا ذلك الانتصار الباهر ملوك الغرب الى تجريد حملة جديدة على الشرق . فدقت الاجراس والنواقيس ودوت الطبول وهتفت الابواق وعلت أصوات المنادين الى الجهاد . فتألب الشبان والكهول من كل فج وصوب الى معسكرات الجيش ، في المانيا وفرنسا وانكلترا . وحمل البحر الزاخر من الغرب الى الشرق جحافل الحرب الصليبية الثالثة بقيادة الامراء الثلاثة : برباروس الالمانى وفيليب أوغست الفرنسى وريكاردوس قلب الاسد الانكليزي

وكان ذلك في سنة ١١٨٩ للميلاد الموافقة سنة ٥٨٥ للهجرة

مات العاهل الالمانى غرقا في الطريق . ووصل رفيقاه بجيشهما المشترك أمام عكاء الحصينة فهاجما أسوارها واستوليا عليها بعد قتال عنيف

هناك جرح روجيه بيكون بضربة مزراق احترقت كتفه اليسرى فنقل مع المصابين من أبناء قومه الى المستشفيات

وعند ما ابتعد فرسان العرب عن الاسوار احتملوا معهم الاسرى والسبايا . وكانت الفتاة «ماري» أخت الجندى «روجيه» بين النساء اللواتى سباهن الجنود !

* * *

سنة ١١٩١ ميلادية الموافقة سنة ٥٨٧ للهجرة

الفتاة تدعى الآن « ثريا » وتقيم في قصر الملك الناصر يوسف صلاح الدين بين السراري والجوار ، وقد حكم عليها القدر أن تقضي بقية حياتها بعيدة عن وطنها وابناء عشيرتها

أشفق عليها الملك العربي عندما قصت عليه قصتها ،فأمر بأن لايلحق بها أذى وأن تظل حرة في حدائق القصر وردهاته الواسعة

لكنها كانت كالعصفور السجين تطوف فيأرجاء القصر ناظرة الى النور من خلال السجف الشفافة والنوافذ الضيقة ،الى الغابات ترتع فيها الثعالب والضباع والى مسارح الغزلان في سفوح الجبال ، الى الفضاء اللانهائي تسبح فيه النسور والعقبان

حسدت الطيور الصغيرة والجوارح تطاردها لان تلك الطيور حرة في فضائها !

وآثرت استنشاق هواء ميادين القتال وقد سممته نتانة الجيف وعفونة الجثث ، على استنشاق هواء القصور وقد امتزج بعبير الورود والياسمين !

هناك وعلى تلك الحالة رآها خادم روجيه ـ الجندي « غليوم » ـ وكان مولاه ريكاردوس قلب الاسد قد بعثه برسالة الى ملك العرب

عمد الجندي الى الحيلة وتمكن من محادثة الفتاة . فعلم منها كيف وقعت في الاسر وأنها تتحين الفرص السانحة للفرار من سجنها

ولكن كيف السبيل الى الفرار والقصر يعج بالنساء والرجال ، والحدائق محاطة بالاسوار العالية ، والحراس والجنود يملأون السهول والطرقات ؟

حمل الجندي الخبر الى روجيه بيكون، فأسرع الشاب الى مولاه الملك وألقى بنفسه على قدميه باكيا ، طالبا منه المعونة لانقاذ أخته من الاسر

فطيب ريكاردوس خاطره وهدأ روعه، ووعده بانه سيحقق أمنيته قائلا له :

ـــ اعلم أن السلطان صلاح الدين شهم همام ، شريف النفس عالى الهمة عادل رحيم،وقد أثبتت لى الحوادث الماضية أن عندالمسلمين أبطالا لا تقل شمائلهم عن شمائل أبطالنا . ألا تذكر ياروجيه تلك الموقعة التى التحمنا فيها مع جنود الأمير سيف الدين ، على مقربة من يافا ، والتى قتل فيها جوادى ، فأرسل الى ذلك الامير الشجاع حصانين من خيرة جياده ، طالباً مني أن لا أكف عن القتال بل أمضي فيه الى النهاية ؟ ألا تذكر أيضاً أنى قلدت ابنه الشاب سيف الفروسية في ميدان القتال اعترافاً مني بجرأته وشجاعته ، ونزولا على رغبة أبيه ؟ اننا يا روجيه نحارب أبطالا مثلنا ، يضعون قواعد الشرف وتقاليد الفروسية نصب أعينهم في كل ظرف وحال . وسأكتب الى صلاح الدين طالباً منه أن يعيد اليك أختك ولن يرفض لي رجاء

فشكر الجندى للملك عطفه عليه ، وقال له :

ـــ هذا هو أملى ورجائي أيضاً يا مولاى . فقد قال صلاح الدين مرة في مجلس جمع أقطاب العرب في هذه البلاد : « لن يقال انه وجد بين من حكموا العرب أكرم من يوسف صلاح الدين ! »

* * *

وكتب ملك الفرنجة الى ملك العرب الخطاب الآتى :

« أيها المولى !

« حامل خطابى ، جندى من جنودي البواسل ، وهو بطل لاقى ابطالك في الميادين ، وأبلى مثلهم في القتال البلاء الحسن . وقعت أخته أسيرة فساقها رجالك الى قصرك . كانت تدعى ماري ، فأطلقتم عليها اسم ثريا . وملك الانكليز رجاء يفضى به الى ملك العرب : إما أن تعيد الى

الأخ أخته ، وإما أن تحتفظ به أسيراً معها . لا تفرق بين من جمعهما الله ولا تحكم على عصفور بأن يعيش بعيداً عن عشه

« اني في انتظار قرارك . واذكرك بقول امامكم عمر بن الخطاب وقد تلقنته عن صديقي الامير حارث اللبناني : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحرارا ؟ »

* * *

فامتطى روجيه بيكون أسرع الجياد ، وراح ينهب الارض نهبا الى مقر السلطان وسجن شقيقته

ومثل بين يدى الملك الناصر ، فدفع اليه الكتاب ووقف ينتظر الرد وقلبه يخفق وشفتاه تختلجان

قرأ صلاح الدين الكتاب ورفع نظره الى الشاب المضطرب ، ويده تعبث بلحيته الكثيفة ، وقد ارتسمت على فمه ابتسامة هى علامة الرضا والارتياح

ثم دعا روجيه الى الجلوس وقال :

— يسرني أيها الفتى أن أجيب مليكك الى رغبته ، وأن يكون حامل رسالته الىّ بطلا من أبطاله الشجعان ، وان أصافح هذا البطل مصافحة الجندي للجندى ! ساكون عند حسن الظن بى ، ولن ارفض لريكاردوس طلباً . واذا كانت الارض قد جادت مرة واحدة بقلب الاسد وصلاح الدين ، فانها لن تجود بهما ولن تجود بمثلهما مرة ثانية!

وأمر السلطان برد الفتاة الى أخيها . ومد يده الي روجيه فاكب الشاب عليها يقبلها وقد تساقطت دموع الفرح من عينيه

وكتب صلاح الدين الايوبى الى ريكاردوس قلب الاسد هذا الرد على كتابه :

« أيها المولى !

« صافحت الجندي الباسل الذي بعثت به رسـولا إلي » . فليحمل إليك المصافحة ممن عرف قدرك في الميادين . لن أحتفظ بالاخ أسيراً مع أخته لاننا لا نستبقي في بيوتنا إلا أسلاب المعارك . لقد أعدنا للاخ أخته . واذا ما نزل صلاح الدين على قول عمر بن الخطاب ، فانما فعل ذلك لـكي ينزل ريكاردوس على قول عيسى : « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! »

« فرد ايها المولى الارض التي اغتصبتها منهم إلى أصحابها . »

الملكة صفية

في حى من أحياء القاهرة القديمة ، كان يعرف من قبل بالداودية، جامع اثرى يدعى جامع « الملكة صفية » يرجع تاريخه الى القرن السادس عشر للميلاد ، ويعد منبره المرمرى من أبدع المنابر في مساجد القاهرة

ولهذا الجامع قصة

وللمرأة التى أطلقت عليه اسمها قصة

وكثيرون هم الذين يجهلون القصتين بلا شك

فمن هي الملكة صفية ، أو السلطانة التى عرف الجامع باسمها ، وحاولت بذلك ان تخدع الاجيال الآتية بعدها ، وتحملها على الاعتقاد بانها شيدت ذلك المسجد ، وهى لم تشيده قط بل الصقت به اسمها زوراً وعدوانا ؟

هى امرأة من نساء البندقية اختلفت فيها آراء المؤرخين . فمن قائل ان « مجلس العشرة » فى تلك الجمهورية الايطالية ارسلها هدية الى السلطان مراد الثالث العثمانى فأحبها وتزوجها . ومن قائل انها من أسرة « بافو » Beffo الشريفة، كان أبوها حاكما لجزيرة كورفو، فوقعت ذات يوم في قبضة القرصان الاتراك وهى ذاهبة في مركب صغير من البندقية الى جزيرة ابيها ، فباعها أولئك القرصان في سوق الرقيق ، وكانت من نصيب السلطان فادخلها حرمه وانزلها فيه منزلة رفيعة

والرأى الثانى هو المرجح لانه لم يكن من عادة البنادقة أن يهدوا نساءهم الى الناس

وسواء أكانت المرأة حرة نبيلة خطفها القرصان أم من أصل وضيع إهداها سادتها الى السلطان ، فان الحقيقة التى لا شك فيها هى أن تلك الغادة الحسناء ، التى لعبت في تركيا دوراً خطيرا ، كانت من بنات البندقية ومن أبرع نساء عصرها جمالا وابعدهن ذكاء وامهرهن في الدس والمكر والخداع

كان السلطان سليمان القانوني العظيم يردد دائما القول الحكيم : « اذا أراد الله خراب مملكة سلط على ملوكها النساء ! » . لكنه لم يتعظ بهذه الكلمات البليغة ولم يعمل بها فكان فى حياته ألعوبة بيد زوجته روكسلانه الشهيرة

وردد هذه الكلمات من بعده حفيده مراد الثالث ابن السلطان سليم الثانى ، ثم وقع فى الخطأ الذى وقع فيه جده ، بل تمادى في ذلك الخطأ اكثر منه فاستسلم للنساء استسلام من ضرب العمى على بصره وبصيرته ، فكان أيضاً في حياته ألعوبة بايدى زوجاته وحظاياه العديدات ، وعلى الخصوص تلك التي كان يحبها أكثر من غيرها ، والتي عرفت في التاريخ باسم الملكة صفية أو السلطانة صفية والتى جاءته من البندقية !

كان للنساء شأن عظيم فى قصور السلاطين منذ عهد سليمان القانوني وابنه سليم الثاني . وعندما جلس مراد الثالث على عرش آل عثمان وجد نفسه تحت رحمة أمه اليهودية « نوربنو » واخته الجميلة « أسما سلطان » زوجة أحد قواد المملكة العظام

واشتد نفوذ المرأتين في عهد السلطان سليم الثاني لأن الرجل كان يقضى أيامه بلياليها بعيداً عن ادارة شؤون الرعية ، تاركا الحبل على الغارب لزوجته نوربنو وابنته اسما . وقد عرف ذلك السلطان في التاريخ باسم « سليم السكير »

ولم يستطع ابنه مراد عندما خلفه على العرش في سنة ٩٨٢ هجرية

الموافقة سنة ١٥٧٤ للميلاد أن يتخلص سريعا من نفوذ أمه واخته ثم قذفت اليه الاقدار بتلك الفتاة الغربية الحسناء ، ابنة البندقية الساحرة ، ذات العينين السوداوين والجسم الغض الناصع البياض، فهام بها مراد هياما شديداً يقرب من الجنون، وصارت أعز امنية لديه ان يجيب لتلك المرأة رغباتها . وعرفت الحسناء كيف تستغل ذلك الحب الذي اضرمت نيرانه في قلب السلطان ، فجعلت تدس الدسائس في الخفاء لخدمة وطنها البندقية ، والانتقام من اعدائها ومزاحميها لدى السلطان الخاضع لسلطانها !

لقد دون مراد في سجل التاريخ اعمالا شريفة بجانب اعمال مخزية. وبلغ في حياته ذروة المجد كما انه انحدر إلى احط دركات النذالة . واذا كان مديناً بمجده واعماله الشريفة لنفسه العالية وذكائه النادر ومداركه الواسعة ، فان تلك المرأة الشيطانية ، التي سلمها نفسه وانقاد لها انقيادا أعمى كانت مبعث نذالته ومصدر أعماله المخزية

* * *

كان مراد الثالث مزواجا فبلغ عدد زوجاته الاربعين . وكان يميل إلى النساء فبلغ عدد السراري والجواري في قصره خمسمائة أو أكثر . وقد رزق مائة وثلاثة من البنين والبنات اثبت اسماء عشرين منهم — وكانوا احبهم اليه — في سجل الامراء ابناء السلاطين

ذلك هو الحرم العامر العرمرم الذي دخلته « صفية » عندما وصلت الى قصر السلطان قادمة من البندقية . وذلك هو الجيش العظيم الذي لا يحصى له عدد اذا اضفت اليه الخصيان والخدم والعبيد ، والذي تمكنت تلك المرأة الجهنمية من التسلط عليه والوصول الى أرفع المراتب فيه

لم تنظر أم السلطان « نوربنو » واخته إلى القادمة الجديدة وحظوتها عند مراد بعين الرضا والارتياح والقبول . وخشيت المرأتان

مزاحمة تلك الغريبة الساحرة جعلتا تكيدان لها في الخفاء لتشويه سمعتها وحمل السلطان على هجرها . ولكن العاشق الولهان كان يهمل صفية أياما ثم يعود اليها ونيران الغرام تتأجج في صدره من جديد ، وسعيرها يأكل احشاءه ، فيرمي بنفسه بين ذراعيها ، ولا تهدأ ثورة هيامه إلا في احضانها ، ولا يرتوي ظمأ حواسه الا بارتشاف رضابها !

دفعت اليه أمه أجمل الغربيات ، وقادت اليه أخته أجمل الشرقيات ، فكان ينظر اليهن نظرة عطف لا تدوم اكثر من يوم وليلة ، ثم يعود الى تلك التي فتكت به سهام الحاظها ، وينسى بقربها ما عداها من النساء

وخرج مرة الى الحرب ثم عاد الى عاصمة ملكه ، فاذا به يجد في القصر الحسناء « رضية » التي تنبأت له بالمستقبل الباهر الذي ينتظره ، لما كان في العاشرة من العمر ، فقضى معها أسبوعا تذكر في نهايته حبيبته « صفية » فترك قارئة الغيب وعاد الى ابنة البندقية

وخرج مرة أخرى الى الحرب ثم عاد الى عاصمة ملكه ، فاذا به يجد في القصر فتاة هنغارية كالبدر في تمامه ، فقضى معها أسبوعا تذكر في نهايته حبيبته صفية فترك الهنغارية وعاد الى البندقية

وفطنت صفية ذات يوم الى ان احدى زوجات السلطان اليونانيات قد نالت حظوة في عينيه ، فرأت فيها غريمة خطرة ، وأعلنت عليها حربا لم تتورع في اختيار اسلحتها واساليبها . فتمكنت في النهاية من حمل السلطان على قتلها بواسطة خصيانه والقاء جثتها في البوسفور طعاما للاسماك

وتحالفت عليها من أجل ذلك نساء القصر اليونانيات ، وانضمت اليهن بعض التركيات الناقمات على صفية . لكن السلطان مراد الثالث أصغى الى رغبة زوجته المحبوبة وألحق أولئك النسوة بتلك اليونانية ، الواحدة بعد الاخرى ، وخلا الميدان من الغريمات المزاحمات لحسناء البندقية

وذهبت المرأة الى أبعد من ذلك في انتقامها، فأرادت ان يمتد ذلك الانتقام الى عالم الاموات ويتناول ما بقي في القسطنطينية من آثار لليونانيين . فجعلت السلطان يأمر بنبش القبور التي كانت تضم رفات ملوك الروم في تلك المدينة العظيمة . ففتحت القبور والقيت عظام أولئك الملوك في الطرق والازقة تنهشها الكلاب ويتقاذفها الاطفال !

وأدركت نوربنو أم السلطان ان نفوذ هذه المرأة لا يحارب ولا يقاوم . فاذعنت لحكم القدر القاسي وتقربت من زوجة ابنها وماتت بين يدي صفية راضية عليها، معجبة بها، بعد ان أوصتها خيراً بقهرمانة القصر « جانفيدا » ونصحتها بان تعتمد عليها في ادارة شؤون الحرم

ومنذ ذلك الوقت جعلت صفية تتدخل في الامور السياسية وتصدر أوامرها الى الوزراء والقواد والحكام، معتمدة في كل ما يتعلق بالقصر والحرم على صديقتها الجديدة جانفيدا

* * *

أرادت الملكة صفية ذات يوم ان تحصل على مبلغ من المال دون أن يعلم به السلطان زوجها، فطلبته من وزيره الاكبر، فرفض ان يجيبها الى رغبتها بحجة ان الخزينة خاوية خالية وأنها على ابواب الافلاس

حنقت عليه المرأة وجعلت تفكر في وسيلة للانتقام منه دون ان يشعر السلطان بذلك او يداخله ريب من ناحيتها . فوجدت في كنانتها بين السهام الكثيرة سهماً صائباً

دخلت على السلطان في حجرته وقد البست وجهها قناع الخوف والجزع وقالت بصوت مضطرب :

— علمت من احد الخصيان الجواسيس أيها الحبيب، ان بعض كبار الرجال في هذا القصر يدبرون مكيدة لأثارة الجيش عليك، لانك لم تنقد الضباط والجنود ما استحق لهم من رواتبهم منذ شهور

فقطب السلطان جبينه وقال :

— نعم . . . لم ادفع لأن الخزينة لاتحوى المال اللازم .ولا أخفي عنك انني كثير الخوف من المستقبل . . .

— لـكنني ادلك على وسيلة للخلاص من هذا المأزق : ان النقود المتداولة الآن في انحاء السلطنة جميعها من الفضة والنحاس . فاضف اليها ايضاً ربع قيمتها من النحاس

— انها لفـكرة حسنة

— واذا تذمر الشعب او تحرك الجيش ، فلا تنس ان تلقى التبعة كلها على وزيرك الاكبر اتقاء للخطر !

وهذا ماحدث . . .

فقد تذمر الشعب وتحرك الجيش . . .

وعندما هجم الجنود بقيادة الانـكشارية على القصر السلطاني طالبين أن تدفع رواتبهم كاملة ، وأن تعاد قيمة النقود الى ما كانت عليه ، أوفد السلطان من لدنه رسولا يقول لزعمائهم :

— ان السلطان غاضب على وزيره الاكبر صاحب هـذه الفـكرة ومنفذ هذا المشروع . ومولانا يعدكم بانه سيعيد الى النقود قيمتها السابقة ويدفع لـكم رواتبكم كاملة غير ناقصة . اما اليوم فانه يدفع اليكم رأس وزيره المسؤول

وقاد جنود الحرس الوزير المسكين وسلموه للانـكشارية ، فذبحوه امام مدخل القصر مهللين صائحين :

— نصر الله السلطان !

* * *

في سنة ١٥٨٤ للميلاد الموافقة سنة ٩٩٢ هجرية مات ايفان الرابع قيصر روسيا الملقب بالهائل . وكانت السلطنة العثمانية مرتبطة في عهده

مع روسيا بمعاهدات عديدة وقع عليها سليم الثاني السكير . فحملت الملكة صفية زوجها على نقض تلك المعاهدات ، لا حباً به او حرصا على مصلحة امته ، بل انتقاما من اثنتين من زوجات السلطان علمت صفية انهما من بنات الصقالبة ، وانهما تكيدان لها بين النساء . وعندما عادت القبائل الروسية الى شن الغارة على حدود السلطنة العثمانية ، امر مراد الثالث بذبح الروسيين المقيمين فى ولاياته . فتناول السيف الزوجتين الروسيتين فيمن تناولهم من الابرياء !

* * *

وكانت احدى نساء القصر ـ واسمها وردة ـ من اللواتى يبعثن الحسد الي صدر صفية التى كانت ترمى الى الاستئثار بعواطف السلطان وشعوره وماله دون سواها من النساء . فسعت الى التخلص من «وردة» كما تخلصت من غيرها

وحدث ان هاجم الموارنة اللبنانيون مدينة طرابلس وخربوها واحرقوا منازلها وذبحوا حاميتها . فاغتنمت صفية الفرصة السانحة وقالت للسلطان :

ـ ان وردة من بنات ذلك الجبل المتمرد . وهي تنتمى الى أولئك الموارنة العصاة الثائرين. فقد جاءبها اليك النخاسون بعد أن اختطفوها من بلادها . وهي منذ ذلك الوقت لم تغفر لك قبولها في قصرك . فهى خائنة ودساسة جاحدة . اقتلها واسترح وارح الناس منها !

فقتلها السلطان وقتل معها البنات الثلاث اللواتى رزقهن منها . وسير جيشاً لمحاربة اللبنانيين فعاد الجيش على اعقابه خاسراً !

* * *

وفى سنة ١٥٩٦ مات مراد الثالث فى الخمسين من العمر

وتساءل الناس : « من يتبوأ العرش من بعده ؟ »

اما السلطانة صفية الزوجة المحبوبة فانها لم تتساءل ولم تتردد ولم تفكر طويلا

كانت قد رزقت من السلطان ولداً وعقدت النية على جعله سلطانا بعد ابيه

واسم الولد محمد

لكن ابناء السلطان كانوا كثيرين ، وكان كل منهم يطمع في السلطنة ويتطلع الى العرش

لابد اذن من القضاء على مطامعهم . ولا سبيل الى ذلك الا بالقضاء على حياتهم !

وفي ذات يوم ، قبل طلوع الشمس ، انتشر في العاصمة خبر صعق له الناس وترددوا في تصديقه . لكنهم ما لبثوا أن وثقوا منه وثوقهم من أشعة الشمس الساطعة : « اصبح محمد بن مراد صاحب العرش الوحيد باسم محمد الثالث . أما اخوته فقد ماتوا جميعاً مذبوحين ذبح الانعام ! »

ولم يأمر محمد الثالث بقتل اخوته الا نزولا على ارادة أمه صفيه وعملا بنصيحتها

وظلت تلك المرأة الداهية مسيطرة على ابنها كما كانت مسيطرة على زوجها . فاصبح محمد الثالث ألعوبة في يدها كما كان أبوه مراد الثالث من قبل

ومات الابن في سنة ١٦٠٣ للميلاد الموافقة سنة ١٠١٢ هجرية . فأرادت صفية بالرغم من تقدمها في السن أن تصنع بحفيدها احمد ما صنعته بأبيه وجده من قبل . لكن السلطان الشاب ، الذى لم يكن قد بلغ الخامسة عشرة من العمر ، رفض الانقياد لاهواء جدته . فوضع تحت تصرفها قصراً جميلا على ضفاف البوسفور وأرغمها على الاقامة فيه بقية أيام حياتها

ومن هناك أوفدت السلطانة صفية رسولا الى مصر فنقش اسمها على لوحة من الرخام ، في ذلك المسجد الذي ادعت تلك المرأة انها شيدته في القاهرة ، والذى لا يزال يحمل اسمها الى الآن

وماتت صفية ابنة البندقية وحبيبة مراد الثالث ، منسية مهملة دون آن يدون في السجلات تاريخ موتها !

الراهبة هونوريا

اسمها هونوريا ، وهي ابنة امبراطور وأخت امبراطور . ولدت في مدينه « رافنا » سنة ٤١٧ ، وكانت مع أخيها فالانتينيانوس ثمرة زواج الامبراطور كونستانس الثالث والامبراطورة بلاسيديا

طالعها الحب وهي فى ميعة الصبا ، وعلق قلبها بضابط كبير من ضباط القصر ، ولكن أمها المتكبرة أبت أن تسمح بزواج العاشقين

أيقال ان الاميرة هونوريا ابنة كونستانس وبلاسيديا التى يجري في عروقها دم ملكى ، زوجت ضابطاً بسيطاً لا أمل له في الجلوس على عرش ؟

ان الامبراطوريه الرومانيه الغربية واسعة مترامية الاطراف . فما على الفتاة الا أن تبحث عن زوج لها بين الامراء والاقيال الدين يخضعون لامرش ويؤدون لصاحبه الجزية . أما أن تصبح زوجة لرجل خامل فهذا لن يكون

ولكن الفتاه كانت تحب . وكان الحب فى نظرها أعظم من المجد شأناً ، كما كان داعيه أحرى بالطاعة من داعي التاج والعرش

أتريدون أن تبحث عن زوج بين الامراء وأرباب التيجان ؟ حسن !

***

وعزمت الأميرة هونوريا على الاقدام على عمل قد يجد فيــه أهلها عاراً وشناراً ، ولكنه يعد في نظرها انتقاماً من أولئك الدين حالوا بينها وبين من تحب

كان اتيلا ملك الحون يهاجم أطراف الامبراطورية الغربية ، وكانت هناك شعوب ترتجف خوفاً من ذكر اسم ذلك الفاتح العظيم ، وترفع أكف الضراعة الى الله طالبة منه أن يدفع عنها الشر والاذى ، وأن ينقذ أوربا من « البربرية » المتدفقة الطاغية عليها من الشرق والشمال

يريدون من هونوريا أن تبحث عن زوج بين الملوك ؟

ستعرض نفسها إذن على الملك أتيلا !

وهذا ما فعلته الأميرة اليائسة بعد أن أصيبت في حبها

كتبت الى ملك « الحون » تقول إنها ترغب في أن تهبه نفسها . وأوفدت اليه رسولا يحمل اليه رغبتها وخاتماً من الذهب هدية « الخطيبة » الى « خطيبها »

وعلمت أمها الامبراطورة بلاسيديا بما فعلت الفتاة ، فقررت أن تعزلها عن العالم مدة من الزمن حتى تحول دون تنفيذ تلك الخطة الجهنمية وذلك الزواج المعيب !

وكانت بلاسيديا في ذلك الوقت تشرف على الأمبراطورية وتدير دفة سياستها ، لأن ابنها الامبراطور فالانتينيانوس كان شاباً يافعاً ، لا يحسن الادارة ولا يميل الى تحمل تبعات العرش

وفي ليلة حالكة الظلام خرجت من مدينة رافنا مركبة تقل الامبراطورة وابنتها وتحف بها كوكبة من الفرسان المسلحين

سارت المركبة ساعات عديدة قطعت في خلالها السهول والنجاد ، حتى وصلت الى دير قائم على ربوة مرتفعة

ونزلت من المركبة امرأة ثائرة الأعصاب على وجهها أمارات الغضب ، ومعها فتاة هادئة على ثغرها ابتسامة ساحرة

وسجنت هونوريا منذ ذلك اليوم بين الراهبات المبتلات في الدير المنعزل ، بعيدة عن العاصمة وأوضارها وعن العالم بخيره وشره

وصل الرسول الى الملك أتيلا وأفضى اليه برسالته وقدم الخاتم الذهبي
قال أتيلا :

— لقد سمعت بالاميرة هونوريا . وقيل لي انها بارعة الجمال. فاحمل اليها الرد من ملك الهون ايها الرسول . قل لهـا : « إن الملك أتيلا «غضب الله في أرضه» وسيد الممالك وقاهر الجيوش ، يأخذ المرأة التي يريدها ويختار الفتاة التي تروقه ، فهو ليس في حاجة الى أن تعرض عليه الاميرات نفوسهن . سوف نقتحم أسوار رافنا على رأس جيشنا وندك عرش الامبراطور الروماني . واذا ما وجدنا في الاميرة «هونوريا المرأة التي تروقنا ، فاننا نشير اليها بأن تلحق بنا الى خدرنا . اذهب ! »

* * *

دخلت راهبة على الفتاة في حجرتها ، وقالت لها ان رسولا من رافنا وصل الى الدير وهو يرغب فى الاختلاء بها

فمسحت الاميرة دموعها وخرجت الى قاعة الانتظار حيث كان الرسول يأخذ نصيبه من الراحة :

— متى عدت يالوسيوس ؟

— منذ ثلاثة أيام يامولاتي

وأفضى اليها بالرد الذي فاه به ملك الهون

— وماذا يحدث في رافنا ؟

— القوم يستعدون للحرب يا مولاتي وأمك لا تزال على عنادها؟

— وهو . . . كيف حاله ؟

— من ؟

— هو ؟ . . وهل في رافنا من يهمني غيره ؟

— إن الرجل الذي أحبك وأحببته أيتها الأميرة لم يعد في عالم الاحياء !

— قتلوه ؟

— لست أدري إذا كان قد سقط تحت خناجر القتلة أو انتحر . ولكن الذي أعلمه أنه انتقل الى العالم الآخر !

— قتلوه ! نعم . أنا واثقة من ذلك . قتلوه . . . قتلوه . . .

جعلت الفتاة تنتحب . وجعل الجندي الرسول يهدىء روعها ويحاول تعزيتها . ولكن الأميرة هونوريا نهضت فجأة وقد لمع في عينيها بريق مخيف ، وقالت :

— عد إلى راقنا وقل لأمي انها بعملها هذا قد قتلت كل عاطفة في قلبي ، وأنني لن أخرج من هذا الدير بعد الآن . وسر من هناك الى الملك أتيلا مرة أخرى ، وقل له إن الفتاة التى تعرض نفسها عليك تحمل في وطابها نصف الامبراطورية الرومانية باثنة لزواجها . وانك لو أرسلت الى الامبراطور فالانتينيانوس وأمه بلاسيديا تطلب الفتاة زوجة لك ، فان خوفهما منك ومن جيوشك الجرارة سوف يحملهما على القبول وعلى التنازل لك عن نصف الامبراطورية

***

عاد الرسول ومعه وفد من قواد الخون ،يتقدم الجميع أحدالمقربين إلى أتيلا ، حاملا الى الأمبراطور فالانتينيانوس كتاباً من الملك يطلب فيه الأميرة هونوريا زوجة له ، ويطلب معها نصف الأمبراطورية الرومانية

ورد الأمبراطور على الملك برفض طلبه ، وأصدرت بلاسيديا أم الامبراطور أوامرها الى القواد ورجال الحرب بالاستعداد للقتال

ومرت سنوات قضتها الأميرة هونوريا في دير الرهبان ، وقضاها أخوها الامبراطور وأمه بلاسيديا في حروب يعدان عدتها ويخوضان غمارها ويصلحان ما نفسده من شؤون الدولة

على أن أتيلا ذاق مرارة الفشل في السهول « الكتالونية » بفرنسا وعاد أدراجه الى الوراء ، وظنت أوربا أن الرجل الذى كان يسمى نفسه « غضب الله في أرضه » قد رحل عنها دون أمل فى الرجوع

واعتقد الامبراطور فالانتينيانوس أن خطر الزواج الذي كان يهدد أخته هونوريا قد زال أيضاً مادام أتيلا قد جلا عن أطراف الامبراطورية الرومانية

ومرت فترة من الزمن لم يعلم أحد فيها ماذا يصنع ملك الهون في عزلته

ثم خف الرسل من جميع الانحاء الى رافنا حاملين أخباراً أعادت إلى النفوس القلق والاضطراب

أتيلا يهاجم حدود الأمبراطوريه من جديد !

وأصدر الأمبراطور فالانتينيانوس أوامره إلى رحال جيشه وحكام مقاطعاته بأن يستعدوا للقتال لصد الغزاة المهاجمين

وعزم على أن يروج أخته هونوريا الى رجل آخر قبل أن يصل الهون إذا ما قدر لهم النصر . وبذا يضع ملكهم أمام الأمر الواقع

وأخرجت هونوريا من الدير

وأقيمت فى القصر الامبراطورى حفلة رائعة دعى اليها عظماء الأمبراطورية ، وعزفت فيها الفرق الموسيقية ، ودارت حلقات الرقص وارتفعت أنغام الأناشيد ،وأعلن الامبراطورأن أخته هونوريا ستصبح في تلك الليلة زوجة حليلة لصديقه القائد « فلافيوس » الذى سيجلس على أحد العروش التابعة للعرش الامبراطوري

وكانت الأميرة في تلك اللحظة راكعة في مخدعها ، تدعو الله أن يرفع عنها الكارثة وينتقم لها من الذين قتلوا حبيبها وطعنوا حبها في الصميم

طلبت من الله أن يجعل النصر حليف « الخون » أعداء بلادها ، وأن يأخذ بيد ملكهم لكي يهدم عرش أخيها الامبراطور ويقيم على أنقاضه عرشاً جديداً ، تجلس هي عليه وتثأر لنفسها من الذين أذاقوها الألم والعذاب

ولكن الله لم يستجب لدعائها

وما انتهت الحفلة التي أقامها الامبراطور لزفاف أخته الجميلة ، حتى وصل الرسل من تخوم الامبراطورية حاملين خبراً رقصت له القلوب فرحاً وطرباً :

مات الملك أتيلا !

مات ملك الخون مقتولا بيد زوجته في ليلة عرسه !

زفت اليه في تلك الليلة ابنة أحد الملوك الجرمانيين ، فأغمدت في صدره خنجرها بين قبلتين !

قابل الامبراطور فالانتينيانوس هذا النبأ بصرخة فرح دوت في أرجاء القصر ورددها المدعوون رجالا ونساء

وقابلتها الاميرة هونوريا بصيحة يأس قطعت نياط قلبها ، فحملتها وصيفاتها الى مخدعها مغشياً عليها

* * *

ولم تطق الاميرة العيش مع الزوج الجديد الذي زفوها اليه دون رغبتها فيه . فانتهى ذلك القران بفراق لا لقاء بعده

وعادت الاميرة هونوريا الى الدير لقضاء حياتها بين الراهبات المتعبدات

وطلبت اليهن أن لا يذكرن اسمها في حال من الاحوال ، وأن لا يشار اليها إلا بكلمة واحدة : « الراهبة ! »

وقد عاشت هونوريا في الدير بقية حياتها ، وأحاطت نفسها بهالة من

الغموض ، حتى إن التاريخ لايذكر في أية سنة من السنين قضت نحبها ، وانتقلت الى جوار ربها

مات الامبراطور فالانتينيانوس في سنة ٤٥٥

أما هونوريا ـ الراهبة ـ فلا يعلم أحد إذا كانت قد ماتت قبل أخيها أو بعده

وكل ما عرفه الناس فيما بعد انها ترقد في الدير رقادها الاخير ، وأن لوحة من المرمر وضعت على قبرها وحفرت عليها هذه الكلمة : « الراهبة »

بابان المجنون

في سنة ٥٦٥ للميلاد نودي بالامير « بايان » ملكا على قبائل « الخون » ورفعه رجال الجيش على التروس وأقسموا له يمين الطاعة. وعاهدهم الملك الجديد على أن يسير دائما على الخطة التي سار عليها من قبل ملك الخون العظيم «أتيلا» ،الذي دوخ الشرق والغرب ، واجتاح بجحافله مدن أوربا وسهولها وجبالها ، وبسط سلطانه على الاقطار والامصار ، من الاصقاع الاسيوية البعيدة الى سواحل البحار الاوربية

وأراد بايان أن ينسج على منوال ذلك الفاتح العظيم والفارس المغوار ، وأن يثبت للامم شرقاً وغرباً أن قبائل الخون ، سواء أكانت مقيمة فى القصور والمنازل الحجرية ، أم في المضارب المنتشرة في السهول ، فانها لا تزال على ما كانت عليه من قبل ، تحسن الضرب والطعن وتجيد الكر والفر ، وتجمع بين الفروسية والشجاعة والبذخ والترف

وأوفد بايان رسله إلى الاقيال وزعماء القبائل يطلب بناتهم زوجات له ، والى تجار الرقيق يطلب أجمل ما عندهم من الغيد الحسان اللواتي يسوقهن اللصوص والقرصان من البلدان القصية الى أسواق الرقيق

وما مرت شهور على تسنم بايان عرش الملك ، حتى غصت قاعات قصره بالزوجات والسراري ، فبلغ عددهن ثلثمائة امرأة وعذراء

أما أولئك الخون الذين نادوا ببايان ملكا عليهم ، فانهم كانوا يعتقدون ان عهد أتيلا عائد آجلا او عاجلا ، وان ملكهم الجديد بايان هو العاهل الذى كتب له في صفحة القدر ان يعيد ذلك العهد الحافل

بالحروب والانتصارات والغزوات

جاءوا من قلب آسيا ، وتدفقت جموعهم على اوربا ، فاجتاحوا الممالك وخربوا الديار وهتكوا الاعراض واغرقوا المدن والحقول في بحار من الدماء

وشاءت الاقدار التي قذفت بهم من الشرق الى الغرب ان تحول دون زحفهم نحو الجنوب ، فعرفوا مرارة الانكسار للمرة الاولى فى السهول الكتالونية سنة ٤٥١ للميلاد ، فعادوا ادراجهم الى قلب اوربا ، حيث اسسوا دولة قوية ترتكز قوائمها على الاسنة والصوارم

كان الصينيون يخشون بطشهم ، ويسمونهم « هيونغ نو » وطالما وقعت بين الفريقين معارك دموية ، طربت لها الوحوش في غاباتهـا ، والجوارح في فضائها

وكان اليونانيون يسمونهم « خونوي » ، وعرفوا عند شعوب أخرى باسم « أياهونا » ، واصطلح الأوربيون الذين غزا أولئك الفرسان الأشاوس ديارهم على تسميتهم «هون» أو « خون » . وهذا الاسم الاخير هو الذى نطلقه عليهم في حديثنا عن ملكهم بايان المجنون

***

عند ما اعتلى هذا الملك عرش أتيلا ، في سنة ٥٦٥ للميلاد ، كان الامبراطور يوستانوس جالساً على عرش الامبراطورية الرومانية الشرقية في مدينة بيزنطة ، القائمة على ضفاف البوسفور ، كأنها حارس يرقب الشرق والغرب في آن واحد ، ويستعد للانضمام دائما الى الغالب والانقلاب على المغلوب !

جيء الى الملك بايان ذات يوم بغادة هيفاء ، جديرة بأن يزدان بها حرمه الملكى ، وقيل له انها ابنة قائد من قواد الروم ، فرت من كنف

أبيها لانه رام أن يرغمها على الزواج بيوستانوس الامبراطور ، فآثرت الهرب بعيداً عن وطنها على الرواج برجل تمقته . وقيل للملك الحون إن الفتاة الغريبة ترغب في المثول بين يديه وترجو منه ضمها الى نسائه الكثيرات

وما وقع نظر بايان على تلك التحفة البشرية النادرة ، وذلك الجسم البض الناعم ، حتى أخذ بحسنها الفتان، وسحر بنظراتها الذابلة ، وشعر برعشة شديدة تسري في عروقه ، وبمراجل الحب ، أو ما تخيله حباً ، تغلى فيه وتدفعه اندفاع الصائم الجائع نحو شهى الطعام

فتح بايان للفتاة أبواب الحرم ، وأمر أن تعد لها اكبر حجرة في القصر . وأعلن بعد ذلك اليوم بأسبوع ، أن «مارسيا» الرومانية احب نسائه اليه ، وان على ساكنات الحرم ان يطعنها طاعة عمياء ، وعلى رجال الحرس ان يحيوها برفع السيوف والرماح

واغدق بايان العطايا على الساحر « اوغال » الذي جاء اليه بتلك الحسناء . فأعطاه قصراً يقيم فيه وارضا ينعم بريعها ، وسمح له إجابة لطلبه بأن يكون الرجل الوحيد الذى يحق له ان يدخل على مارسيا في خدرها بلا استئذان ، لكي يسطو عليها بقوة سحره ، ويسهر على إبقائها مخلصة للملك وفية له فى حبها

وجعل الساحر أوغال يتمتع منذ ذلك الوقت بالامتياز الذى أحرزه دون سواه من رجال الجيش والحاشية

وكان الملك لا يجد ما يوجب القلق في دخول الساحر على زوجته المختارة ، وبقائه ساعات في خدرها ، ما دام الساحر فى عرف الناس أجمعين رجلا لا تحدثه نفسه بالاعتداء على أغراض الغير ،وما دام اوغال يستخدم قوة السحر الكامنة فيه لخدمة الملك ومصلحته

* * *

مرت سنوات كان بايان في أثنائها أسعد الرجال وأسعد الملوك، يغزو بجيشه الكثير العدد والعدد أطراف الممالك المجاورة ، ويعود الى حصونه وقلاعه بالغنائم والأسرى والسبايا ، فيوزع جزءاً منها على الجنود ورؤسائهم ، ويحتفظ لنفسه بأثمن التحف وأجمل النساء

ولكنه لم يفضل قط امرأة على مارسيا المحبوبة ، التي ظلت في حرم الملك أبرع النساء جمالا، وأعظمهن حظوة لدى سيد القصر ، وأكثرهن دلالا عليه

وكان بايان قد استولى على أقاليم تابعة للامبراطورية الرومانية الشرقية ، ورفع عليها أعلام الخون وضمها الى أملاكه الواسعة ، ولم يضمن أباطرة بيزنطة لانفسهم الراحة والأمان . إلا بتعهدهم لذلك الملك الجبار والغازي المنتصر ، بدفع جزية بلغت في وقت من الاوقات ثمانين الف قطعة من الذهب الخالص في كل عام

وكان الساحر أوغال لايزال في نظر الملك أقرب الرعايا اليه ، وأشدهم غيرة على مصالحه واخلاصاً في خدمته

ولكن حدث ذات يوم ما بدل حالا بحال ، ومزق عن عين الملك بايان الحجاب الكثيف الذي كان يخفى عنه حقيقة الساحر المحبوب والمرأة المعبودة

دخل الملك في ذلك اليوم على زوجته في حجرتها ، فاذا به يراها مع أوغال في حالة لم تترك عنده شكا في أن المرأة تحب الرجل وأن الرجل عشيقها ، وأن الاثنين يخدعانه من زمن بعيد ، وأنه أفرغ حبه في زوجة فاجرة ، ووضع ثقته في ساحر فاسق منافق !

صعق الملك عند ما وقع نظره على ذلك المشهد القذر ، فوقف واجماً لا يقوى على الحراك ، وقد عقد لسانه عن النطق وانتابه دوار وامتدت أمامه غشاوة بسطت رواقها على كل شيء ، وخيل اليه أنه على

وشك السقوط على الارض فاقد الرشد

ولكنه تجلد وتمالك نفسه وصاح بالخائنين صيحة دوت كزئير الأسد في الحجرة الرحبة ، وتردد صداها فى أرجاء القصر ، ووثب الملك بايان الى الامام يريد الاقتصاص من الرجل الذى خان الامانة ، ومن المرأة التى لعبت بقلبه وعبثت بحبه

لكن الساحر أوغال كان قد اغتنم فرصة وحوم الملك وذهوله هنيهة من الزمن ، فاختفى من الحجرة وخرج من القصر دون أن يعترضه معترض . وكيف يقف في سبيله خادم أو حارس أو جندي ، وهو الرجل الوحيد الذي سمح له الملك بدخول الحرم بلا استئذان ؟

وجد بايان نفسه وحيداً امام تلك المرأة التي احبها فقابلت حبه بالخيانة ، فخطا نحوها خطوتين ، وعيناه تقدحان شرراً ، والزبد يتساقط من فمه المرتجف غيظاً وغيرة ، وقد استل سيفه وهم بالقضاء على الفاجرة

لكن المرأة استغاثت في تلك اللحظة بطبيعتها فلبت الطبيعة النداء وانهمرت الدموع غزيرة من عيني مارسيا الساحرتين ، فانطرحت على قدمى زوجها الهائج ، باكية صارخة بصوت متقطع تتخلله الزفرات : « اقتله ، اقتله ايها الحبيب الغالى ، اقتله فقد لطخ عرضك بعاره ، واستخدم سحره لاغرائي ، فاستسلمت اليه بقوة لا أعرف مبعثها ! لقد سحرني هذا اللعين وسلط علي الارواح الشريرة ، ثم افترسنى وتركني الآن اندب سوء طالعي ! اقتله واقتلني معه ، فقد خانك متعمداً وخنتك مرغمة أيها الحبيب الغالى ! »

فوقع السيف من يد بايان ، وسقط الملك على الارض مغشياً عليه...

واثبتت مارسيا ان المرأة لا تعدم حيلة للخروج في ساعة الخطر من اشد المآزق حرجاً!

وكان ذلك في سنة ٥٨٢ للميلاد

* * *

لجأ الساحر اوغال الى الامبراطور موريس ، الذى خلف في تلك السنة الامبراطور تيبيروس على عرش بيزنطة ، فأكرم موريس وفادة اللاجىء ، وجعل يستخدمه لقضاء اغراضه والتجسس على زعماء الخون واقيالهم ، والوقوف على ماكان ذلك الامبراطور يجهله من احوال عدوه بايان ، ومدى استعداده للحرب وغير ذلك من الشؤون التى كان يهمه الاطلاع عليها

ومرت اعوام عديدة لم يعلم فيها بايان من امر ساحره شيئاً ، الى ان بلغه ذات يوم خبر التجاء الساحر الى عدوه ، فأوفد الرسل الى الامبراطور موريس يطلب اليه رفع الجزية الى مائتى الف قطعة من الذهب ، واعادة اوغال الى بلاد الخون لمعاقبته على ما اقترف

رفض موريس اجابة الملك بايان الى طلبه وامر جنوده بأن يضربوا الرسل بالسياط ويطردوهم خارج حدود المملكة . فرجع الرسل الى مليكهم في حالة يرثى لها وقصوا عليه ما حدث . فثار ثائر بايان واصدر امره بتعبئة الجيش والاستعداد للحرب

وبدأ القتال بين الخون والامبراطورية الرومانية الشرقية . ودارت رحى المعارك من جديد وعم الخراب والدمار جميع الاقطار الخاضعة للملكين ، وجعل كل منهما يسابق الآخر في ضروب القسوة والهمجية والسلب والنهب

ولعب المشيب في رأسيهما وأحنت السنون ظهريهما وهما على تلك الحالة من الاسترسال في الحرب

وعاد الملك بايان في يوم من أيام الشتاء الشديدة البرد الى قصره للراحة ، فاذا به يفاجأ بخبر قضى على آماله وألبس الدنيا فى وجهه ثوب السواد !

قيل له إن زوجته مارسيا قد اختفت ، وانها أوثقت يدى خادمتها وتركتها فى حجرة نومها ، بعد ان عهدت اليها في أن تقص على سكان القصر في اليوم التالى أن مارسيا عائدة الى وطنها ، وأنها تحب الساحر اوعال ولا تطيق صبراً على البقاء بعيداً عنه ، وانها تترك بلادا تمقتها وزوجاً لم تحبه قط في حياتها !

هذا هو الخبر الذي أفقد الملك بابان عقله وتركه مجنوناً من الغضب والحزن معاً

وأبى أبناؤه العشرة أن ينزعوا عن رأسه التاج وأن يجلسوا على العرش واحداً منهم مادام أبوهم على قيد الحياة ، وراحوا يطلبون الضرب والطعن ، وراء الملك المجنون ، الذى كان يهاجم صفوف الأعداء ويقتحم أسوارهم صائحاً بصوت أشبه بصوت الحيوان الجريح : «مارسيا . مارسيا . . ! »

وظل بابان المجنون يطوف من بلد الى بلد ومن ميدان إلى ميدان ، ينثر الموت يميناً ويساراً ويطلبه في ميادين الوغى من دون أن يرضى به الموت ، الى أن اغتالته يد جندى أثيم من جنوده ، في احدى المعارك التى دارت رحاها بين الخون وجيش القائد برسكوس

ولم يترك بابان المجنون أحداً من صلبه ، فان أبناءه العشرة قتلوا مثله في الحروب والغزوات

وعند ما أراد أنصاره أن يحملوا جثته الي قصره لدفنها في الضريح الذى كان ذلك الملك قد أعده لنفسه ، لم يعثروا إلا على رأس بابان المجنون !

رجل الخازوق

في أواسط القرن الخامس عشر ، كان يجلس على عرش فرنسا ملك أصبح فيما بعد مشهوراً في التاريخ باسم لويس الحادى عشر

وكان لويس الحادى عشر من عشاق المشانق ، يعاقب اللصوص والمجرمين وأعداءه السياسيين بالشنق اذا كان لا يرغب في التخلص منهم سراً بواسطة السم والخنجر

فلويس الحادى عشر رجل المشنقة وقد حكم فرنسا بالمشنقة !

وفي أواسط القرن الخامس عشر أيضاً ، كان يجلس على كرسي الامارة في ملدافيا رجل أصبح فيما بعد مشهوراً في تاريخ بلاده ، هو الامير فلادو

وكان الامير فلادو من عشاق الخوازيق، كما كان لويس الحادى عشر من عشاق المشانق. واذا كان ملك فرنسا قد حكم بلاده بالمشنقة ، فالامير الملدافي قد حكم بلاده بالخازوق !

كان ذلك الامير يعلل نفسه بحلم لذيذ وهو أن يوحد بلاد رومانيا تحت لوائه ، ويجعل منها قوة تقف في وجه الاتراك الغزاة الفاتحين ، وتحول بينهم وبين التوغل في أوربا

وكان يحلم أيضاً باقامة عرش ثابت الاركان والدعائم يجلس عليه ويتركه لابنائه من بعده

وكان لابد لصاحب هـذا الحلم من الالتجاء الى وسائل العنف وطرح الشفقة والرحمة والضمير جانباً ، وهـذا ما فعله الامير فلادو الملداني رجل الخازوق

حارب الاتراك ووقع في أسرهم . ثم أفلت منهم وحاربهم من جديد وأسر كثيرين منهم . وعاد الى وطنه باكتشاف جديد كان من قبل يجهله وهو : الخازوق !

رأى الاتراك « يخوزقون » أعداءهم ، ووجد أن الخازوق يترك في النفوس أثراً عميقا ، فعشقه كما عشق لويس الحادى عشر المشنقة ، وجعل الامير الملدافي يجلس على الخازوق كل شخص يريد التخلص منه ، بينما لويس الحادى عشر يعلق في أغصان الاشجار كل من يقف حجر عثرة في سبيله

واذا كان القرن الخامس عشر حافلا بالحوادث العظيمة ، فانه يجب علينا عندما نذكر تلك الحوادث ان لاننسى مشانق لويس الحادى عشر الفرنسي وخوازيق الامير فلادو الملدافي !

* * *

شيد فلادو لنفسه قصراً شاهقاً فوق أكمة تشرف على نهر الطونة على مقربة من بلدة سناجوك الصغيرة . وأقام في ذلك القصر المنيع يحيط به اعوانه من القواد وزعماء القبائل . وكان يخرج من وقت الى آخر على رأس جيشه يطلب الحرب والنزال ، ثم يعود بالاسلاب والاسرى الى قصره ، وأمامه الراية التى حاكتها ايدى النساء الملدافيات من شعورهن السوداء ، وكتب عليها الاسم الذى اطلقه فلادو على نفسه : « الملك المائل ! »

وذلك الامير الذى اتخذ الخازوق وسيلة للقضاء على اعدائه وخصومه ومنافسيه ، ولقمع كل حركة يراد بها عرقلة سياسته ومنعه من بسط سلطانه على الاقاليم الرومانية كلها ، ذلك الامير الغليظ الذى لم يعرف الحنان الى صدره منفذاً . والذى لم تأخذه شفقة قط على ضعيف أو رحمة بأعزل ، ذلك الامير الذى جعل الحروب دينه وديدنه ، كان يشعر

امام النساء بضعف ووهن وخفقان، وكان اذا ما اكتنفته أنظار الحسان سقط جاثيا على ركبتيه وقد استولت عليه رعشة الحمى من قمة الرأس الى أخمص القدم !

كان رجل الخازوق يحب الجنس اللطيف ويخشاه في آن واحد !

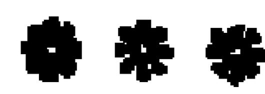
تزوج فلادو المدافي ، ولكن الذين بحثوا فى تاريخ رومانيا ، واستقصوا أخباره ، ودونوا في الكتب ما وصل الى علمهم عن رجل الخازوق ، يؤكدون أن «الملك المائل» كان يرتعد خوفا من زوجته في الوقت الذى كانت فيه جحافل الاتراك ترتعد خوفا منه في الميادين !

* * *

أرسل « الملك المائل » في طلب الاعوان المقربين اليه فاسرعوا ملبين النداء ، ووفدوا على قصر الامير من كل حدب وصوب . وفي صبيحة يوم من أيام الصيف سنة ١٤٦٣ عقد فلادو وأولئك الاعوان مجلسا عاما على شرفة واسعة تشرف على النهر الصافي، فتوسط الامير ذلك المجلس وأحاط به الاقيال والزعماء ، وقد ارتدى كل منهم أفخر الثياب وحمل عدة حربه الكاملة . وقال الأمير :

— لقد أرسلت في طلبكم أيها الاصدقاء لكى أفضى اليكم برغبة قد تكون الاخيرة ، لانني أشعر بدنو أجلي وأخشى أن يسطو عليّ ملك الموت فارحل عن هذا العالم قبل أن أحقق الغاية السامية القصوى التي وضعتها نصب عيني ! لقد نجحت في الخطة التي رسمتها لنفسي ووحدت القبائل الرومانية تحت سلطة واحدة ، وأنا مدين بذلك النجاح للخازوق ! الخازوق الذى اخذته عن أعدائنا الاتراك ، والذى لولاه لما قامت لنا في هذه الظروف والاحوال قائمة . الخازوق الذي نحن مدينون له بكياننا والذى أنا مدين له بهذا العرش الذى أجلس عليه ! فرغبتى اليكم أيها الاصدقاء المخلصون أن تدفنونى على ضفاف هذا

النهر الذي أحببته ، في ظل شجرة وارفة ، وأن تقيموا على قبري خازوقا تكتب عليه هذه الكلمات : « هنا يرقد رجل الخازوق الملك المائل فلادو الداقى ! » وبعد أن تواروني التراب وتنادوا بخالق أميرا عليكم ، أسرعوا الى أقبية هذا القصر المنيع واقتحموا أبوابها وأخرجوا ما تجدونه فيها الى ضوء النهار ، ثم القوا بذلك كله في أعماق هذا النهر اذهبوا بسلام !



لم يمت رجل الخازوق في تلك السنة ، بل عاش مدة من الزمن واستأنف القتال بالرغم من شيخوخته ، فكان يحارب الاتراك على حدود إمارته ، ويحارب خصومه في داخل تلك الحدود ، ويخوزق منهم كل من ينجو من السيف ويقع أسيراً في قبضته

وظل الاقيال والزعماء يتحدثون فيما بينهم ويتهامسون ، محاولين عبثا معرفة السر الذي تضمه جدران الاقبية فى قصر سناجوك

وأخيراً ، مات فلادو الداقي فدفنه شعبه على ضفاف النهر ، في ظل صفصافة وارفة ، وشيد له ضريحا فخما يعلوه خازوق هائل الحجم جدير بالملك المائل فلادو الداقى رجل الخازوق !

وأسرع الناس إلى الاقبية فحطموا أبوابها ، واذا بهم أمام منظر تقشعر لهوله الابدان

رأوا في تلك الاقبية صفا متراصاً من الخوازيق على كل منها هيكل بشرى تدل عظامه على انه هيكل امرأة !

وجدوا عشرات من تلك الهياكل وأخرجوها الى ضوء النهار عملا برغبة الملك المائل ، وألقوها في أعماق نهر الطونة فتقاذفتها أمواجه ثم ابتلعتها الواحد بعد الآخر . . .

ولم يعلم أحد منذ ذلك الوقت من أين جاءت تلك الهياكل البشرية

ومن هن النساء اللواتي بطش بهن فلادو الروماني الملك الماثل رجل الخازوق !

وقيل انهن من النساء الخائنات اللواتى كن يتجسسن لحساب الاعداء، وإن الامير فلادو كان يأتي بهن سراً الى قصره ويعدمهن بواسطة الخوازيق بلا جلبة ولا ضوضاء

من أب مجهول

« الامير فاسيلي طلق زوجته ! »

هذا هو الخبر الذى انتشر في مدينة موسكو وامتد الى أطراف روسيا في سنة ١٥٢٥ ، فتناوله الناس بالأخذ والرد ، وقضى الاشراف والصعاليك والأغنيـاء والفقراء وأصحاب الاملاك والفلاحون أوقات فراغهم في الليل والنهار يتحدثون به ويتناقشون ويتجادلون

الأمير فاسيلىطلق زوجته لانها عاقر لم تلد له أبناء ولانه لابدلعرش الامارة الروسية من ولى عهد يرثها من بعد أبيه

من هو فاسيلى ؟

هو أمير روسيا قبل أن تصبح أمبراطوريةموحدة الاجزاء موحدة العرش موحدة الميول . تزوج الاميرة « سالومية يوريفنا سابوروف » الجميلة الفاتنة ، على أمل أن يرزق منها ولداً يرثه على العرش ، وينصرف من بعده الى اتمام ما بدأ به ذلك الامير العظيم ، فيجمع شمل القبائل الروسية تحت صولجان واحد وعلم واحد ، ويقضي على الفوضى ونظام الاقطاع في تلك المملـكة الشاسعة المترامية الاطراف

لـكن الاقدار لم تحقق أمنيته ولم تلد سالوميـة المولود الذى كان يرغب فيه

وخشى الامير أن يفوته الوقت وأن تبلغه الشيخوخة قبل أن يرى بجانبه ولي عهد لامارته ، فينتقل العرش من بعده الى أسرة غريبة . .

وعزم على العمل بنصيحة وزرائه والمقربين اليه ، والنزول على ارادة المنجمين وأدعياء علم الغيب . فطلق زوجته العاقر وأجلس بجانبه على

العرش فتاة كان يحمل لها في قلبه من قبل حبا شديداً

تلك الفتاة هي « هيلانه فاسيليفنا جلنسكي » ابنة أمير من أصدقائه واتباعه

وارتفعت أصوات الشعب في كل مكان بالصلاة والتضرعات الى الله ، بأن يعطف على الامير فاسيلي المحبوب ويرزقه ولى عهد يكون مثل أبيه شجاعا ذكيا

وجعلت الاميرة هيلانة تطوف بأنحاء روسيا وتزور الـكنائس والاماكن المقدسة،طالبة من الله أن لا يجعل حظها كحظ سابقتها الاميرة سالومية،وأن ينعم عليها بأن تكون أماً لأمير بعد أن أصبحت زوجةلأمير

وأرسلت الزوجة الجديدة في طلب العرافين والمنجمين والسحرة ، وجعلت تستطلع الغيب بواسطتهم . فقال لها العراف «روميسيانوس» ذات يوم : « سوف تلدين ولداً يكون في مستقبل الايام من جبابرة التاريخ ! » وقال لها الراهب فيرابون : « لن يتم توحيد الاقطار الروسية وإنشاء الامبراطورية الا على يد أمير يدعى ايفان ، ويرث الامير فاسيلي على عرش روسيا ! » وأجمع العرافون والمنجمون والرهبان على أن الاميرة ستلد ابناً يرث أباه فاسيلي ويحمل لقب « قيصر الاقطار الروسية ! »

ولـكن الاعوام مرت ولم تتحقق تلك الامنية العزيزة ، ولم تشعر الاميرة هيلانه بأن جنيناً يتحرك في أحشائها

وطال الانتظار . وعيل صبر الامير فاسيلي . وتضاعفت مخاوف الزوجة المسكينة،وأدركت أنها ذاهبة لامحالة في الطريق الذىذهبت فيه الاميرة سالومية من قبلها،وأن زوجها سيطلقها كما طلقالزوجة الاولى !

ما العمل اذن وكيف السبيل الى دفع الخطر الداهم ؟

طلب الامير أوبولنسكي ذات يوم من الاميرة هيلانة السماح له

بمقابلتها لان لديه سراً يريد الافضاء به اليها ، ولان ذلك السر يتعلق بمستقبلها ومستقبل الامارة والاسرة الملكية والعرش الروسي

وسمحت الاميرة للشاب الجميل اوبولنسكي بالدخول عليها في حجرتها. ودار بين الاثنين حديث طويل لم يعلم أحد تفاصيله ولم تبح الاميرة بشيء عنه لأحد من الناس

ولكن رجال الحاشية وموظفي القصر وقواد الجيش وأفراد الأسرة المالكة ، رأوا بعد ذلك اليوم الذي تقابلت فيه الاميرة هيلانه مع الأمير اوبولنسكي ، ان صداقة متينة تربط الاثنين وان الامير الشاب يتمتع في القصر بحظوة لا يتمتع بها سواه من اقرب المقربين الى فاسيلي وزوجته

ونطق العرافون في تلك السنة باقوال اعادت الامل الى النفوس . فقد قال احدهم :

« في السنة القادمة تلد الاميرة ابناً تحييه السماء بقصف الرعود وسقوط الامطار ! »

وقال آخر :

« سوف تلد الاميرة ابناً تبشر به السماء جنود الامارة في ميادين القتال باشارة نارية تظهر في كبد الفضاء ! »

وقال ثالث :

« سوف تلد الاميرة ابناً يوحد الاقطار الروسية تحت صولجان واحد ، وسوف يرى ذلك الامير النور في شهر اغسطس سنة ١٥٣٠ ! »

واذيعت هذه النبوءات في انحاء الامارة ، واعتقد الناس ان النحس قد ولى ، وان الامير فاسيلي المحبوب سيرزق ابناً يتمم ما بدأ به ابوه

وما مضت شهور على ذلك كله حتى أذيع في المدن والقرى والحقول، أن الاميرة حامل ، وان فرح الامير فاسيلي بلغ أشده ، وان ولي العهد سيرى النور في شهر اغسطس سنة ١٥٣٠ ، كما تنبأ بذلك العرافون

وفي الخامس والعشرين من ذلك الشهر وضعت الاميرة ابنا ذكراً، وشهد الجنود في ساحة القتال اشارات نارية تملأ الفضاء، وقصفت الرعود في سماء موسكو وهطلت الامطار بغزارة في الجبال والسهول !

ودعى الطفل « ايفان » ونودى به ولياً للعهد وقرر والده ان يتبوأ ذلك المولود السعيد عرش روسيا من بعده باسم ايفان الرابع

ولكن أصواتاً ارتفعت في جوانب القصر وتسربت الى الخارج وتناقلها الناس من مكان الى مكان :

« ان ولى العهد لايشبه أباه فاسيلى بل يشبه الامير اوبولنسكى الجميل، الذي تعطف عليه الاميرة هيلانة عطفا خاصاً ! »

لكن تلك الاشاعات لم تصل الى اذن الامير فاسيلى ، او انها قد وصلت اليه دون أن تؤثر فيه . فأحب ذلك الطفل الجميل ، وعهد الى كبار العلماء والقواد في أن يسهروا على تربيته اذا ما امتدت يد الموت الى ابيه يوماً من الايام

* * *

مات فاسيلى الثالث في سنة ١٥٣٣ وولى العهد في الثالثة من عمره ، ولعبت أيدي الدساسين والنمامين في مقدرات الامارة ردحا من الزمن ، وشهد ولي العهد في صغره مصائب الفوضى وويلاتها

وفقد أمه هيلانة وهو في الثامنة من العمر . ولكنه كان شجاعا ذكيا قوى الارادة ، فتغلب على الصعاب بالرغم من حداثة سنه . وعندما بلغ الثامنة عشرة من العمر نادى بنفسه اميراً على روسيا ، واتخذ للمرة الاولى لقب قيصر، وعزم على انشاء امبراطورية تكون أعظم أمبراطورية في الشرق والغرب

وتحققت امنيته. وعرف ذلك القيصر في التاريخ باسم ايفان الهائل ، وهو الذى يعود اليه الفضل في تأسيس الامبراطورية الروسية العظيمة

وكانت ألسنة السوء قد افضت اليه بسر مولده ، فأراد ان يعرف هل هو ابن الامير فاسيلى الثالث حقاً او ابن المدعو اوبولنسكى ؟

لـكن التحقيق الذى قام به لم يسفر عن نتيجة حاسمة . ولم يتمكن ايفان الرابع من تمزيق الستر عن ذلك السر بالرغم من الفظائع التى ارتكبها في هذا السبيل ، ومات معه سر مولده فأضيف الى اسرار القصور الـكثيرة التي لا تزال مجهولة الى الآن

ولم يعرف احد بعد من هو والد القيصر ايفان الرابع المعروف في التاريخ بايفان الهائل !

مقاريوس

مقاريوس رجل طيب القلب ، وكاهن جليـل ، واسقف يخـدم رعيتـه بنزاهة واخلاص ، وروسي يحب بلاده وأميره ويرغب رغبة صادقة في أن يوحد ذلك الامير الاجزاء المتناثرة من الاصقاع الروسية الشاسعة ، ويجعل منها دولة واحدة يكون هو ملـكها أو قيصرها

وذلك الامير الذي يضع فيه مقاريوس ، أسقف روسيا المخلص النزيه ، آماله وأمانيه ، هو الامير ايفان فاسيليفتش ، أوايفان الرابع كما كانوا يسمونه

كان ايفان بعيـد المطامع ، وقد راقته فـكرة الأسقف مقاريوس فوافقه على تنفيذها بجميع الوسائل والاساليب . وأطلق يده في اعداد العدة لذلك العمل الجليل ، واكتساب رؤساء الدين الذين كان نفوذهم عظيما في أنحاء روسيا ، وعلى الخصوص في المزارع والحقول والجبال

ولم تمض بضع سنوات على تسنم ايفان الرابع أريكة الامارة خلفاً لأبيه أو الذى كان يظنه أباه فاسيلى الثالث ، حتى كان كل شيء قد تم بالوعد أو الوعيد ، واحتفل في السادس عشر من شهر يناير ١٥٤٧ بتنويج الامير ايفان الرابع قيصراً على روسيا المتحدة

ونشرت وثيقة المبايعة التى اعترف فيها الامراء الآخرون بالامير ايفان الشاب قيصراً وسيداً عليهم ، فاذا بها تحمل سبعة وثلاثين توقيعاً

وبعد أن انتهت حفلة التتويج ، اختلى القيصر الجديد بالاسقف مقاريوس ، ودار بين الاثنين الحديث الآتى :

— الآن وقد أصبح أميري المحبوب قيصراً على روسيا المتحدة من أدناها إلى أقصاها ، يجب عليّ أن أطلعه على سر لم أبح به لأحد بعد . . .

— أي سرّ هذا يا سيادة الاسقف ، وهل كنت تخفى عني شيئاً وأنت تتصرف في شؤون الامارة كما تريد ؟

— نعم . ولكنني أخفيت عنك ذلك السر خوفاً من أن تفشيه لأحد قبل تتويجك . انك في الثامنة عشرة من عمرك يا صاحب الجلالة والشاب أقل مقدرة من الكهل او من الشيخ على حفظ الاسرار وعدم افشائها . اما السر الذى لا بد من اطلاعك عليه . فهو أن وثيقة المبايعة التى جئتك بها موقعاً عليها من سبعة وثلاثين من الامراء ، والتى بموجبها نادينا بك اليوم قيصراً على روسيا هي وثيقة مزورة

— وكيف ذلك ؟

— نعم ، لم يوقع على تلك الوثيقة غير اثنين فقط من الامراء . اما الباقون فقد وقعت أنا بالنيابة عنهم ، أى انى زورت توقيعاتهم كي يتم لنا بالحيلة ما لم نتمكن من الحصول عليه بالاقناع !

— ولكن هذه مسألة خطيرة ؟

— ليست خطيرة بقدر ما تظن . ولن يجرؤ واحد من اولئك الامراء ان يجاهر امام الآخرين بأنه لم يوقع على الوثيقة ، لانه يعتقد ان الآخرين جميعهم وقعوا عليها وانه وحده الذى خدع . فكن مطمئن البال يا بني واحذر أن يبدر منك أمام أحد أولئك الأمراء — وجميعهم أتباعك — ما من شأنه أن يعكر صفو العلائق الحسنة الودية بينك وبينهم . والآن بقي علي أن أجد لك بين فتيات المملكة زوجة جميلة تلد لنا في أقرب وقت ولي عهد لعرش القياصرة !

* * *

قلنا ان الاسقف مقاريوس كان طيب القلب مخلصاً نزيها . ولكنه كان لا يتردد أمام شيء في سبيل مليكه وتوحيد الامارات تحت رايته . وهذا ما حمله على تزوير خمسة وثلاثين توقيعاً من توقيعات الامراء ، وتلفيق الوثيقة الرسمية التي بموجبها وضعت أسس عرش القياصرة في موسكو !

وبعد أن هدأ بال القيصر من هذه الناحية ، أوفد مقاريوس رسله الى أطراف روسيا،ليبحثوا له عن فتيات جميلات ، وأعلن في كل مكان أن القيصر يرغب في اتخاذ احدى بنات أتباعه زوجة له

تلك كانت العادة المتبعة في ذلك الوقت . فان كل أب يجرى في عروقه دم شريف ، كان يرسل ابنته الى موسكو ، فتجتمع في العاصمة مئات الغيد الحسان ، وينزلن جميعاً في قصر يضعه القيصر تحت تصرفهن لهذا الغرض ، ثم يطوف عليهن في يوم معين ويفحصهن ، ويفرزهن ، ويختار من بينهن الفتاة التي تكون جديرة بعطفه وحبه

وعلامة العطف والحب منديل من الحرير يلقيه القيصر على الارض أمام الفتاة السعيدة الحظ ، وخاتم ثمين يقدمه لها بواسطة أحد رجال الحاشية

وبينما الافراح تعم المملكة والناس في كل مكان يتحدثون عن حفلة التتويج ، إذا بهم يفاجأون بخبر حفلة أخرى حدد لها اليوم الثالث من شهر فبراير سنة ١٥٤٧

القيصر يتزوج !

تمكن الاسقف مقاريوس من جمع خمسمائة فتاة من أبدع فتيات روسيا جمالا وأوفرهن مالا في العاصمة موسكو،حيث عرضن على صاحب العرش ، فوقع اختياره على أنستازيا رومانوفنا زخارين كوشكين ، التي كان أبوها وجدها من كبار الموظفين في عهد والد ايفان وجده

وفي ٣ فبراير أقيمت الافراح في أنحاء المملكة احتفالا بزواج ايفان الرابع قيصر روسيا ، الذى عرف فيما بعد باسم إيفان الهائل

وفي مساء ذلك اليوم وصل رجل غريب الى القصر وطلب مقابلة الاسقف مقاريوس ، قائلا ان لديه أموراً هامة يرغب فى الافضاء بها اليه

وما وقع نظر الاسقف على الغريب حتى صاح في وجهه :

— ما جاء بك الى هنا يا اورلوف وعهدي بك في جبال الاورال ترعى الماشية وتحفظ العهد الذى قطعته على نفسك ؟

فسكت الرجل لحظة ولم يجب على سؤال الاسقف . ثم طلب كأساً من الخمر فشربها . وبعد أن استراح من التعب الذى كان بادياً عليه قال للاسقف :

— اسمع يا سيدى . ان الانسان يرقب في حياته الفرص السانحة لاغتنامها والاستفادة منها ، وانا انسان كبقية البشر وأمامى الآن فرصة سانحة لا بد لى من اغتنامها والاستفادة منها . فقد وقع اختيار القيصر على أنستازيا ابنة زخارين . وانستازيا رأت النور في ظروف يجهلها الناس فلا يعرف سر مولدها غير اثنين في هـذا العـالم : الاسقف مقاريوس والراعى اورلوف:أي أنا وانت ياسيدى.ولست أطيل عليك الشرح وأضيع عليك وقتك الثمين.فأنت تتمتع بجميع ما يحلم به انسان من نعم في هذا العالم . أما أنا فلا أزال فقيراً . نعم لقد نفحتنى بمبلغ من المال ولكنه لا يكفى.فاما ان تجعلنى غنياً واما أن أبوح بالسر الذى أعرفه وأقول للقيصر وللناس أجمعين إن الفتاة التى وقع عليها اختيار صاحب العرش زوجة له ، ليست ابنة زخارين بل ابنة رجل مجهول !

فقاطعه الاسقف صائحاً :

— أيها الشقى . ألا تعلم أن عملا كهذا سوف تكون عواقبه وخيمة عليك ؟

— لا يهمني . فاما أن اصبح غنياً واما ان احدث فضيحة في البلاط وأذهب ضحيتها !

فـكر مقاريوس هنيهة . ثم قال :

— اذهب الى منزلي وانتظرني هناك . سيكون لك ما تريد

* * *

وفي اليوم التالى اعلن في المدينـة ان رجلا مجهولا دخل القصر فى أثناء حفـلة الزواج وحاول اغتيال القيصر ، وانه فشل في محاولته فثار جنونه وجعـل يفوه بأشياء من شـأنها تشويه سمعة القيصرة وسمعة القيصر أيضاً

واعلن في آن واحد أن الرجل سجين في منزل الاسقف مقاريوس ، الذى انقذ حيـاة القيصر وقبض على المجرم ، وان ذلك المعتوه ـ واسمه اورلوف ـ سوف يلاق جزاء صنعه ويعدم في مساء ذلك اليوم

واعدم اورلوف في مساء ٤ فبراير سنة ١٥٤٧ وحمل معه سر مولد القيصرة انستازيا

ولـكن الى حين . . .

فقد عثروا بعد ذلك التاريخ على اعتراف خطي بيده ، يقول فيه ان الفتاة التي وقع عليها اختيار القيصر ايفان الرابع لم تكن ابنة ابيها بل ابنة رجل مجهول ، يقال انه فاسيلى الثالث والد ايفان الرابع

فهل تزوج ايفان الهائل اخته ؟

كلا . فان ايفان نفسه لم يكن ابن ابيه بل ابن ضابط جميـل من ضباط الحاشية في عهد ابيه فاسيلى !

ذلك هو السر الذى حاول مقاريوس ان يخفيه عن الناس في ذلك اليوم الذي احتفل فيه بزواج القيصر . وقد كان له ما اراد . ومات ايفان الهائل دون ان يعرف من هو ابوه ، ودون ان يعلم ان زوجته المحبوبة

انستازيا ثمرة غرام اثيم مثله

ولم يعلم احد ايضاً ان الوثيقة التى بويع بموجبها ايفان الهائل كانت مزورة سوى الاسقف مقاريوس . وعندما علم الناس ذلك فيما بعد على أثر البحث والتنقيب لم يعلموا من هم الذين زورت توقيعاتهم ومن هما الاثنان اللذان وقعا الوثيقة دون بقية الامراء

هذه قصة الوثيقة المزورة

وهذه قصة القيصر المولود من أب مجهول والذى تزوج فتاة مولودة من أب مجهول !

يتيمة القصر

لم يعرف احد اسمها الحقيقى ولم يعلم احد من أين أتت تلك الفتاة . فان حياتهـا بقيت سراً من الاسرار . والرجل الوحيـد الذى كان في استطاعته ان يفضى الى الناس بحقيقـة امرها ، لم يفعل شيئاً من ذلك بل ظل صامتاً متكتما ، وحمل معه سر الفتاة الى القبر

· ذلك الرجل هو نابوليون بونابرت

أما الفتاة فقد عرفت في مصر باسم « سلمى » وعرفت في فرنسا باسم « مارى » ثم اطلق عليها فيما بعد اسم « جولييت »

عرفها بونابرت في مصر . . .

فقد سحق القائد الفرنسي الشاب جيش المماليك في معركة «امبابه» المعروفة بمعركة « الاهرام » والتى قيل ان بونابرت خاطب جنوده في ابانها قائلا لهم : « ان اربعين قرناً تنظر اليكم من فوق هذه الاهرام» وذلك في ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨

وفي اليوم التالى دخل الفرنسيون القاهرة ، وفر مراد بك زعيم المماليك على رأس ثلاثة آلاف فارس الى الوجه القبلي ، وتعقبه فريق من الفرنسيين للقضاء عليه . وفي ٢٧ يوليه دخل بونابرت المدينة في موكب حافل

وجيء اليه ذات يوم في قصره بحي الازبكية بفتاة بارعة الجمال امسك بها الجند وهي تحاول الوصول الى القائد بلا استئذان . فاكرم بونابرت وفادتها ، وطلب اليها ان تطلعه على حقيقة امرها وعلى السبب الذى من اجله طلبت الوصول اليه

رفضت الفتاة ان تجيبه امام رجال حاشيته وضباط جيشه ،فأدخلها نابوليون بونابرت احدى قاعات القصر ، واختلى بها ساعـة كاملة . ثم خرج واصدر امره الى الضابط المشرف على النظام في القصر بأن يعد للفتاة حجرة تقيم فيها ، وأوصاه بها خيرا ، وطلب اليه ان يحذر الضباط والجنود من التعرض لها

وكانت الفتاة تحسن اللغتين الفرنسية والعربية ،وكل ماعرفه عنها الناس ان اسمها « سلمى » وانها من نساء المملوك مراد بك،هربت من قصره بعد انهزامه والتجأت الى القائد الفرنسى ، فضافها ووضعها تحت حمايته .

اما جنسيتها ودينها وشخصيتها واسرتها وتاريخ حياتها ، فهذا ما لم يعرف الناس عنه شيئاً ، وما لم يطلع عليه غير بونابرت

وكانت الفتاة تروح وتجيء فى القصر،وتخرج احيانا الى الاسواق، وتجالس الضباط الفرنسيين في اماكن اللهو التى انشأها بونابرت في الأزبكية ، وتستقبل بعض كبراء المصريين من أعضاء المجلس الـكبير . ولـكنها كانت دائماً تخفي وجهها وراء حجاب كثيف ، بحيث لا يرى الناظر اليها من جمالها الفتان غير عينين سوداوين براقتين . ولم ترفع الفتـاة الحجاب عن وجهها قط ، إلا عنـدما كان نابوليون بونابرت نفسه يطلب منها ذلك في مجلسه وأمام ضباط جيشه

وكثيراً ما رآها سكان القاهرة في ذلك الوقت بين رجال الحاشية، وراء القائد الفرنسى ، في الحفلات الرسمية والاعياد القومية ، كفتح الخليج والمولد النبوى وغيرهما

واختفت الفتاة سلمى عن الأنظار عند ما غادر بونابرت القاهرة على رأس جيشه ، وسار به لفتح سوريه ، حيث ذاق للمرة الأولى مرارة الفشل والانكسار ، وعجز عن اقتحام أسوار عكاء المنيعة

لم تظهر سلمى أمام الناس طول ذلك الوقت ، ولم يرها الضباط والجنود والسكان الا بعد أن عاد بونابرت من سورية

ثم سافر القائد الشاب لى فرنسا خلسة كما هو معلوم ، في ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٩

ومنذ ذلك اليوم لم يقع نظر أحد على الفتاة سلمى . وأدرك الجميع أنها سافرت مع القائد الى فرنسا ، أو أنها لحقت به بعد رحيله بأيام

وانطلقت الالسنة تذيع الاشاعات والاقاويل ، عن علاقة بونابرت بتلك الفتاة المجهولة الغريبة الأطوار ، فادعى بعضهم أنها عشيقته ، وذهب آخرون الى أنها جاسوسة كان بونابرت يستخدمها لقضاء بعض الشؤون الخاصة

وكان الناس كلما ذكروها يسمونها « يتيمة القصر »

وبهذا الاسم عرفها الفرنسيون في باريس ، حيث أعد لها بونابرت حجرة خاصة فى قصره ، ولكنه طلب اليها أن تغير اسمها العربي ، وأطلق عليها اسم « ماري »

وبعد أن رفعت الاقدار القائد بونابرت الى أوج المجد فجلس على عرش فرنسا ، واصبح صديق سلمى يدعى نابوليون الاول ، وزحف ذلك النابغة العبقرى بجيشه اللجب على دول أوربا المتحالفة يجتاح اراضيها ويدك عروشها ويحطم تيجانها ويحتل عواصمها . كانت الفتاة «ماري» تلحق بالجيش أينما حل وحيثما ذهب ، تعتنى بالجرحى وتشجعهم على تحمل الآلام في سبيل الوطن والمبدأ والامبراطور

وكان نابوليون يدعوها اليه كلما أقام مدة من الزمن فى عاصمة من عواصم أوربا ، فمكثت مارى في قصور الأباطرة والملوك في برلين وفينا وموسكو وغيرها من سنة ١٨٠٥ الى سنة ١٨١٣

وشهدت حريق « الكرملن » مقام القياصرة في عاصمة روسيا .

ونامت في الحجرة التي شاءت الاقدار بعد ذلك الوقت بسنوات أن ينام فيها ابن نابوليون الاول « فرخ النسر » في قصر شنبرون في فينا

وظلت الألسنة تتناقل الاشاعات والاقاويل عن الفتاة التابعة للامبراطور كظله ، وأطلق عليها بعض الضباط اسم « جولييت » على سبيل المداعبة ، وكانوا يتهامسون فيما بينهم بأن «روميو» عشيق الفتاة هو الامبراطور نفسه .

ولكن الظواهر لم تدل في وقت من الاوقات على أن لنابوليون علاقة أثيمة بتلك الفتاة الغريبة المجهولة الاصل . وكان كلما حدثه عنها أحد يبدو التأثر على وجهه ، ويقول بصوت متهدج : « ان ماري فتاة شجاعة نبيلة . وانني أحفظ لها ولاهلها في أعماق قلبي أطيب الذكرى ! »

وفى شهر مارس سنة ١٨١٤ كانت سلمى أو مارى أو جولييت أو يتيمة القصر مقيمة في باريس ، حيث أصيبت بحمى شديدة أودت بحياتها بعد ثلاثة أيام

وكان الامبراطور في ذلك الوقت يعاند الاقدار ويواجه الصعاب وقد اكتنفته من كل حدب وصوب ، فاضطرته الظروف والاحوال الى التنازل عن عرشه بعد وفاة « يتيمة القصر » بثلاثة أسابيع

ولكنه علم بموتها قبل رحيله عن فرنسا . فأمر وهو في ميدان القتال بأن تدفن الفتاة في « فونتنبلو » وبأن يوضع على قبرها اكليل من الورد الابيض عليه اسم الامبراطور .وظلت شخصية الفتاة المعروفة باسم يتيمة القصر سراً من أسرار القصور في عهد نابليون

أفرنسية هي أم مصرية ؟

أعشيقة نابوليون هى أم جاسوسة كما كانوا يقولون ؟

هذا ما لم يعلمه أحد ـ ولن يعلمه احد ـ فقد دفن سر الفتاة معها ومع الامبراطور !

ابن النسر الصغير

نهض الدوق دى ريشتاد في ذلك اليوم من نومه مبكراً ، وارتدى ثوبه الابيض وتقلد سيفه المرصع بالجواهر ، وأسرع الى الحديقة الغناء حيث كانت تنتظره صديقته ـ زوجة خاله ـ الأرشيدوقة صوفيا دى هبسبورج الجميلة الفاتنة

تعانق الاثنان طويلا ، وتبادلا قبلات أحر من الجمر . وبكى الأمير الشـاب المريض بكاء مراً ، وكانت ابتسـامات الاسى تتخلل زفراته وتنهداته

سألته صوفيا :

ـــ أما رأيت أحداً في طريقك الى هنا ؟

فطوق الامير عنقها بذراعيه والتهم شفتيها بقبلة وقال :

ـــ كلا . لم يقع نظري في طريقي الى هنا الا على بعض الخدم وهم يقومون بأعمالهم اليومية . لقد أردت أن تـكون أول كلمة تنطلق من فمي اليوم موجهة اليك أيتها الحبيبة

ـــ حسناً فعلت . فان هـذا اليوم ليوم سـعيد . أنت الآن في العشرين من العمر !

ـــ نعم . نحن في سنة ١٨٣١

ـــ أرجو أن لا ينقضى العام المقبل الا وانت جالس على عرش ابيك العظيم في باريس !

ـــ هذا أمل يضعف في نفسي يوماً بعد يوم . ان عرشى هنا ... هنا في صدرك ... هو عرش الحب يا صوفيا !

— حبيبي،لقد سبقت الاقدار فألحقت مصيري بمصير رجل آخر ، هو الدوق فرنسوا شارل خالك وشقيق امك . ولكن مكانك فيهذا القلب لا يعلو عليه مكان . هل تشك في حبي يا . . .

— يا نابوليون ! لا اريد منك ان تسميني بغير هذا الاسم الذى عرف به ابى ، والذي دون في بطون التاريخ برءوس الاسنة ودخان المدافع ودوي الطبول . انى لا اشك في حبك ياصوفيا . ولكنه حب عقيم ، حب وضعنا له قيوداً ورسمنا له حدوداً

— انني منذ هذه الساعة وفي هذا اليوم السعيد احطم القيود والغي الحدود !

— حقاً ؟ أتفعلين هذا ؟

— نعم يا نابوليون !

— حبيبتي !

— حياتي !

وكانت قبلة لو علم بها الارشيدوق فرنسوا شارل دى هبسبورج ، زوج الارشيدوقة صوفيا، وشقيق الامبراطورة ماري لويز ، وخال الدوق دى ريشتاد ابن نابوليون الاول، لاندلعت في صدره نيران الغيرة والغيظ، ولأنزل بالعاشقين العقاب الذي يستحقانه ، ولأدرك ان زوجته تخونه او انها على وشك ان تخونه مع ذلك الامير الشاب المريض السجين

* * *

ولد فرنسوا شارل نابوليون جوزيف بونابرت ابن الامبراطور نابوليون الاول في سنة ١٨١١. وتطلعت اليه الانظار وما كان احد يدرى في ذلك الوقت انه سيذهب ضحية السياسة والدسائس ، بل ضحية الغدر والخيانة . فما سقط ابوه عن عرشه حتى تلقفته ايدى اعدائه — وهم اهله — فنقل الى النمسا حيث قضى حياته سجينا في قصر شنبرون

وعرف في التـاريخ باسم « الدوق دي ريشـتاد » بالرغم من ان الفرنسيين بابعوه باسم « نابوليون الثاني »

ومات « النسر الصغير » مريضاً بعيداً عن وطنه في سنة ١٨٣٢ بقصر شنبرون ، كما مات ابوه « النسر الـكبير » بعيدا عن وطنه في سنة ١٨٢١ بجزيرة القديسة هيلانة النائية

اما امه الامبراطورة ماري لويز فبعد ان كانت زوجة لاعظم عاهل اوربي اكتسحت جيوشه الممالك ودكت العروش ، فانها رضيت بأن تكون زوجة لضابط بسيط . وأنساها غرامها الجديد واجب الذكرى نحو زوجها وواجب الحنان نحو ابنها

لـكن الاقدار ارسلت الى الامير الشـاب الحزين امرأة حسـناء بارعة الجمال رقيقة الشعور ، وجد السجين بقربها العزاء والحب

تلك المرأة هي الارشيدوقة صوفيا ، زوجة الارشيدوق فرنسوا شارل شقيق ماري لويز أم النسر الصغير

وقد نشأ الحب بين الشاب وزوجة خاله في قصر شنبرون،وترعرع في ظلال الاشجار ، في تلك الحديقة الغناء المحيطة بالقصر

وقدمت الارشيدوقة الجميلة واجب الزوجية قرباناً على مذبح الغرام حباً بالامير الشاب وشفقة عليه في وحدته

ورزقت من زوجها ولداً أسمته « فرنسوا جوزيف »

ورزقت من عشيقها الدوق دى ريشتاد ولدا أسمته « مكسيمليان »

أما « فرنسوا جوزيف » ابن الارشـيدوقة صوفيـا من زوجها فرنسوا شارل ، فقد ولد سنة ١٨٣٠ واعتلى عرش النمسا بعد تنازل جده وأبيه عن حقوقهما

وأما « مكسيمليان » ابن الارشيدوقة صوفيا من عشيقها « النسر الصغير » فقد ولد سنة ١٨٣٢ ولـكن مصيره كان غير مصير أخيه

كان نابوليون الثالث، الذي أعاد الملك في فرنسا الى أسرة نابوليون، لا يجهل أن الارشيدوق مكسيمليان النمساوى هو ابن ذلك النسر الصغير نابوليون الثانى ابن العاهل الفرنسي العظيم

وأراد نابوليون الثالث أن يجلس ذلك الارشيدوق الذى يجري في عروقه دم « بونابرت » والذى كان ثمرة غرام الشاب السجين في قصر شنبرون على عرش جدير بحسبه ونسبه

أليس نابوليون الثالث وارث مجد الأسرة ؟

أليس الدوق دى ريشتاد النسر الصغير ابن عمه العظيم ، الذي دوخ أوربا ورفع الاسرة من الحضيض الى أوج العلا ؟

أليس مكسيمليان ، الابن الذى حرمته الشرائع الحق في أن يحمل اسم أبيه، أجدر من سواه في اعتلاء عرش يجب أن يخلق لأجله من اليوم ؟

أراد نابوليون الثالث أن يوجد له ذلك العرش في أوربا ، فاقترح على الامبراطور فرنسوا جوزيف أن ينادى بالارشيدوق مكسيمليان ملكا على البندقية . لكن الامبراطور النمساوي الذي كان يعلم حق العلم أن أخاه سيكون حليفاً لفرنسا عليه، وأنه اقرب الى اسرة « بونابرت » منه الى اسرة « هبسبورج » رفض الموافقة على ذلك الاقتراح ، وطلب الى صديقه نابوليون الثالث أن يبحث لاخيه عن عرش يكون بعيدا عن حدود النمسا قدر المستطاع !

وظل الامبراطور نابوليون الثالث يرقب الفرص السانحة ، الى أن ساعدته الظروف فقامت في بلاد المكسيك الامريكية ثورات زعزعت كيانها ، واستدعت تدخل الدول الاوربية لاعادة السكينة الى تلك الديار وفعلت السياسة فعلها وساعدتها الاموال الطائلة التى بذلها نابوليون الثالث . فاجتمع أعيان المكسيك في ٨ يوليه سنة ١٨٦٣ وقرروا جعل

بلادهم امبراطورية وعرضوا عرشها على الأمير مكسيمليان

تردد الرجل في بادىء الأمر لأنه كان يوجس شرا من قبول ذلك العرش البعيد والسفر الى ذلك القطر الذي عرف من قديم الزمان بأنه موطن الثورات والقلاقل. لكن نابوليون الثالث ألح عليه وعاهده على أن يشد أزره في الملمات. فلم ير مكسيمليان بداً من القبول، وأعلن في شهر ابريل سنة ١٨٦٤ أنه يرتقي عرش المكسيك

ودخل الامبراطور الجديد مدينة مكسيكو عاصمة ملكه في اليوم الثاني عشر من شهر يونيه سنة ١٨٦٤ بينما كانت الجيوش الفرنسية التي جردها صديقه نابوليون الثالث وأرسلها الى المكسيك، تطارد الثائرين وترغم العصاة على الخضوع والاذعان لارادة أوربا

* * *

شغلت حوادث أوربا الامبراطور نابوليون الثالث عن نصرة قريبه الى النهاية . وما لبث مكسيمليان أن وجد نفسه وحيدا في بلاد لا تحبه ولا تريده امبراطورا عليها ، وبين أقوام يعدونه غريباً . فجعل يتخبط وسط المشاكل والثورات ، ويحاول عبثاً أن يقوى مركزه ويحمي عرشه المزعزع

أوفد زوجته الامبراطورة شارلوت الى باريس ، حيث سعت لدى الصديق نابوليون الثالث ، واستغاثت به من جديد قائلة إن زوجها معرض لاشد المخاطر هولا ، اذا لم يمد اليه الامبراطور الفرنسى يد مساعدته ، ويعدل عن قراره الاخير وهو أن يدعو البقية الباقية من جيوشه للجلاء عن المكسيك

لكن العاهل الفرنسى لم يصغ الى تضرعات الامبراطورة وزوجها . وفي سنة ١٨٦٧ لم يبق فى المكسيك جندى أوربى يشد أزر الامبراطور الغريب

حاول الرجل الغريب ان يقاوم الاعداء ولكنهم تكاثروا عليه .
وفي شهر مارس سنة ١٨٦٧ كانت الفوضى قد عمت البلاد وكان الثائرون قد ضيقوا الخناق عليه فارغموه على الفرار من عاصمته والالتجاء مع أنصاره الى مدينة « كيريتارو » حيث حاصروه من كل ناحية

وفي ١٤ مايو من تلك السنة خانه أحد أعوانه وفتح أبواب قلعة « كروز » لاعدائه فدهموا المدينة واضطروا مكسيمليان الى التسليم

وفي ١٣ يونيه اصدرت المحكمة العسكرية حكمها باعدام الامبراطور الدخيل

وفي ١٩ يونيه نفذ الحكم في مكسيمليان الاول امبراطور المكسيك رميا بالرصاص

وبعد ان هدأت العاصفة نقل امير البحر النمساوي « تيجيتوف » جثمان ذلك التعس على بارجة حربية الى اوربا

وأسدل الفصل الاخير من تلك المأساة

***

في النمسا يرقد الآن الدوق دي ريشتاد النسر الصغير ابن نابوليون الاول

وفى النمسا يرقد الامبراطور مكسيمليان ابن النسر الصغير وحفيد نابوليون الاول

وفي النمسا يرقد الآن الامبراطور فرنسوا جوزيف أخو الامبراطور مكسيمليان المكسيكي

وفى النمسا يرقد الآن الارشيدوق فرنسوا شارل والد الامبراطور فرنسوا جوزيف ، والذي يريد التاريخ أن يجعله ايضاً والد الامبراطور

مكسيمليان ،لانالتاريخ يأبى فى معظم الاحيان انيفضح اسرار القصور ويعيد الحقائق الى نصابها !

وفى النمسا ترقد الآن الارشيدوقة صوفيا دى هبسبورج زوجة فرنسوا شارل النمساوي وعشيقة نابوليون الثانيالفرنسى وأم الاخوين الذين يريدهما التاريخ شقيقين

ام الامبراطور فرنسوا جوزيف من زوجها ، وام الامبراطور مكسيمليان من عشيقها !

الميت الحي

دخل اسكندر الاول ، قيصر روسيا التقى الورع القوى الشجاع ، مع من دخل من ملوك الحلفاء وامرائهم وقوادهم عاصمة الفرنسيين باريس الجميلة، مدينة النور والعرفان، على اثر انهزام الامبراطور العظيم نابوليون الاول وفراره مرغماً من فرنسا سنة ١٨١٤

واتخذ الامبراطور الروسي قصر الاليزي مقرا له ، لكنه جعل يتردد كل يوم على منزل منعزل في شارع صغير من شوارع العاصمة ، تقيم فيه امرأة يقول البعض انها روسية ، والبعض انها المانية ، ويدعى آخرون انها رأت النور فى قطر قصي من الاقطار الشرقية المجهولة

واسم تلك المرأة « البارونة دي كرودنر » وهي على جانب عظيم من الجمال ، لكنها منصرفة عن شؤون هذا العالم الى شؤون عالم آخر . فهي تعيش بجسمها فى باريس، ويتيه عقلها ويسبح خيالها وراء حدود الكون المنظور

والبارونة دى كرودنر مثل القيصر الروسي تقية ورعة على صلة بالابرار واولياء الله والقديسين . تنادي الارواح فتلبى الارواح النداء ، وتزور البارونة الطيبة القلب وتتجاذب معها اطراف الحديث متى شاءت واينما ارادت

وانتقلت العدوى منها الى الامبراطور فاراد هو ايضاً ان تتوثق عرى الالفة بينه وبين الارواح، فأهمل مثل البارونة شؤون هذا العالم وانصرف عنها الى شؤون العالم الآخر . وأصبح يعيش بجسمه فى باريس ، ويتيه عقله ويسبح خياله وراء حدود الكون المنظور

وانطلقت الألسنة ـ وما اطولها في باريس ـ تلوك الاخبار والاشاعات عن علاقة الرجل المتوج بالمرأة المعتوهة . هذا يقول انه يحبها ، وذاك يدعي انه رزق منها ولدا سيجعله ولي عهده لان زوجته الامبراطورة عاقر لم تحبل ولم تلد ولن تحبل ولن تلد

وكان القيصر منذ نعومة اظفاره يتطلع الى السماء ونعيمها ، اكثر من تطلعه الى ملذات هذه الحياة الدنيوية وما يحيط بالعروش من مظاهر الجلال والمجد والاكرام

وكم من مرة أفضى ذلك الرجل الممتلىء قوة ونشاطا الى زوجته وامه واخويه بعزمه الثابت على التنازل عن العرش مختارا ، وقضاء بقية حياته في دير بعيد او في صومعة وسط الجبال

لكن مشاغل الملك حالت دون تحقيق رغبته . فقد اضطرته الظروف والاحوال الى الانضمام الى الدول الاوربية المتحالفة على نابوليون،وكان ذلك عندارتقائه عرش روسيا سنة ١٨٠١،فنزل القيصر الى ميدان الحرب والكفاح،وكانت الهزيمة نصيبه في معارك اوسترليتز وايلو وفريدلاند.ثم عقد مع عدوه صلحا لم يدم غير سنوات معدودة، فحاربه من جديد سنة ١٨١٢عندما اكتسح نابوليون بجيوشه الجرارة الامبراطورية الروسية ، ونصب اعلامه على اسوار عاصمتها ، وظلت الحرب قائمة بين العاهلين الى ان تم للحلفاء ما ارادوا . فترك نابوليون فرنسا وعادت اسرة بوربون اليها بمساعدة اسكندر الاول واصدقائه

وبعد تحقيق هذه الامنية جعل القيصر من جديد يفكر في اعتزال الملك ودخول الدير

* * *

وانقضت الاعوام وأقرباء القيصر يستخدمون نفوذهم للتأثير عليه ومنعه من الاقدام على عمل لم يروا فيه فائدة لوطنهم ، وهم يضعون

مصلحة الوطن فوق كل مصلحة ، ويعتبرون هيبة التاج فوق كل اعتبار

ومرت عشر سنوات على تلك الايام التى قضاها اسكندر الاول في باريس، يتلقى الوحى من البارونة دي كرودنر ، ويطلع على اسرار علومها الروحانية ويجاريها فى احلامها وتخيلاتها

البارونة الآن بعيدة عن ضوضاء العالم . تعيش عيشة النساك المتقشفين في دير شيدته على نفقتها الخاصة ـ او نفقة الامبراطور كما يقولون ـ على شاطىء بحر آزوف . وقد جعلته ملجأ للنساء والرجال الذين يرغبون في اعتزال الحياة قبل ان يدركهم الموت وتحقق رغبتهم. وقد التجأ الى ذلك الدير عدد كبير من امثال البارونة واتصلوا هناك بارواح الاموات في العالم الآخر

وحدث في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٢٥ ان غادر الامبراطور فجأة عاصمة ملكه ، بصحبة زوجته الامبراطورة ماريا فيدورفنا واثنين من المقربين اليه . واعلن في ذلك اليوم ان اسكندر الاول في حاجة الى الراحة وانه سيأخذ نصيبه منها في قرية تجانروج الهادئة

وقضى هناك شهرين كان في خلالهما يغادر القرية من وقت الى آخر ويذهب الى شاطىء بحر آزوف

٥ نوفمبر ١٨٢٥ : اصيب الامبراطور بالحمى واضطر الى ملازمة الفراش

٩ نوفمبر : تحسنت حالة الامبراطور وتماثل الى الشفاء

١٧ نوفمبر : عاودته الحمى واضطرته لى ملازمة الفراش

١٨ نوفمبر : مات الامبراطور

عم الحزن انحاء الامبراطورية المترامية الاطراف . ووفد الشعب من كل حدب وصوب للاشتراك في دفن الجثة العزيزة المحبوبة المحترمة

وبعد شهر من ذلك اليوم نقل نعش الامبراطور اسكندر الاول من تجانروج الى بطرسبرج العاصمة . وفي الثالث عشر من شهر مارس ١٨٢٦ - اى بعد وفاة القيصر بأربعة أشهر - وضع النعش في مدافن التاج في قلعة القديسين بطرس وبولس ، واطلقت المدافع ايذاناً بأن القيصر قد رحل عن هذا العالم حيث التعب والشقاء الى نعيم الخلد حيث الراحة والهناء

* * *

سبتمبر ١٨٣٦

قبض رجال الشرطة في جبال الاورال على رجل في ثوب فلاح يجوب تلك الناحية على متن جواده ، فعدوه من المتشردين وجلدوه عشرين جلدة

ثم القوه في غياهب السجن

لكن اميرا من افراد الاسرة المالكة اسرع الى ذلك المكان، وانقذ المتشرد من سجنه ، وارسله في حراسة كوكبة من الفرسان الى مجاهل سيبيريا

واشتغل الرجل مع المجرمين والقتلة في ذلك المكان القصى

رآه مرة احد الجنود القدماء فصاح قائلا :

« هذا والدنا اسكندر . هذا القيصر المحبوب »

ورأته مرة الفلاحة الجميلة نكيفروفنا فجثت على قدميها وقبلت يده قائلة : « ما اشد الشبه بينك وبين القيصر اسكندر الأول »

والتقى به القائد بتروف فحياه التحية العسكرية وقال: « أرجو لك الراحة والهناء ياصاحب الجلالة »

فمن هو ذلك المتشرد الذي يدعي أولئك الناس أنه شديد الشبه بالامبراطور الميت الى حد أنهم يدعونه : « يا صاحب الجلالة » ؟

هو فيدور كوميتش ، راهب متعبد كما يدعى ، خرج من الدير وجعل يطوف في أنحاء روسيا داعياً شعبها الى التمسك بتعاليم الدين لاكتساب الجنة فى الآخرة

ورددت الألسنة ـ وما اطولها أيضاً فى روسيا ـ أن الامبراطور لم يمت وانه اعتزل الحياة راضياً مختاراً ، وان الجثة التي نقلت الى بطرسبرج ودفنت في اضرحة القياصرة هي جثة جندي روسي مات في تجانروج فى اليوم الذي اشاعوا فيه خبر موت القيصر

وارتفعت أصوات هنا وهناك طالبة من الامبراطور نيقولا الاول ـ شقيق القيصر الميت الحى ـ أن يعلن الحقيقة على الناس وينبش الضريح ويفتح النعش

لكن الامبراطور رفض اجابتهم الى طلبهم وأصدر بياناً صرح فيه بأن أخاه قد مات ودفن وانه لن يسمح لنفسه بانتهاك حرمة القبور

وذهب بعضهم الى البارونة دى كرودنر فقالت : « ان فيدور رجل صالح من الاخيار الذين فتحت امامهم أبواب السماء . واذا كان الامبراطور اسكندر الاول قد مات فان روحه لا تزال حية باقية فى جسم فيدور ! »

ولما الحوا عليها فى الطلب والسؤال رفعت يديها الى السماء صائحة : « في قصور بطرسبرج غوامض كثيرة . وفى قلعة القديسين بطرس وبولس سر رهيب ! »

وأوشك تصريح البارونة ان يؤدى الى فتنة فى روسيا القيصرية لو لم تسرع الاسرة المالكة الى تحويل الرأى العام الى حروب جديدة واعمال عامة مفيدة

* * *

مر قرن كامل على ذلك اليوم الذى مات فيه القيصر دون ان يموت ،

ودفن دون ان يدفن ، والسر الماثل لا يزال باقيا على ماكان عليه ، وابناء هذا القرن لا يعلمون من الحقيقة اكثر مما كان يعلم ابناء القرن الماضى

لكن روسيا اليوم ليست روسيا الامس . فقد توالت عليها الثورات والاحن فدكت معالم الانظمة السابقة الواحد بعد الآخر . وراح أولئك الدين استحلوا المحرمات جميعها يستحلون نبش القبور وانتهاك حرمة الاموات

فتح الشيوعيون اضرحة القياصرة ونهبوا ما كان فيها من تحف ونقود وجواهر

ووصل بهم المطاف الى ضريح القيصر اسكندر الاول ، فحطموا بلاطه والواحه وفتحوا النعش الرهيب ، واذا به خاو لا جثة فيه ولا مال

وظنوا انهم بذلك قد هتكوا الحجاب عن السر الدفين . لكن السر قد ازداد غموضا،ويحق للعالم اليوم ان يتساءل كما تساءل من قبل: « أين الامبراطور الميت الحي ؟ ومن هو فيدور المتشرد ؟ وكيف مات ؟ واين يرقد رقاده الاخير ؟ »

الغرام المقيم

خرج الارشيدوق جان سلماتور ، او جان اورث كما كانوا يسمونه، من آل هابسبورج النمسويين ، كعادته كل يوم الى الصيد والقنص . لكنه عاد فى المساء خالى الخريطة من الطيور والعصافير ، وراح يطوف في شوارع العاصمة النمساوية «فينا» الجميلة ، باحثاً عن رفيق يقضى معه السهرة الى ما بعد منتصف الليل

وجد ضالته المنشودة وظل مع رفيقه « ادولف ستربرج » الى الساعة الخامسة صباحاً ، يتحدث عن شعوره نحو اسرته ، وضجره من الحياة ، ورغبته الصادقة في الابتعاد عن ضوضاء المدن ، وقضاء بقية حياته في عزلة تامة وخلوة نائية

عبثاً حاول الصديق الوفي ان يدخل على نفس الامير اليائس بعض الرجاء ، وان يظهر له الحياة من ناحيتها الحلوة الجذابة . فان ذلك الشريف النبيل الذى كان يملك ثروة طائلة ، ويمت الى اشرف الأسر المالكة فى اوربا ، ويستطيع أن يجلب السعادة اليه صاغرة راضية ، ذلك العظيم الشجاع الجميل الفتى، الارشيدوق جان سلماتور دى هابسبورج ، ابن عم الامبراطور فرانز جوزيف القابض على صولجان النمسا والمجر ، ذلك الرجل الذى كان في مقدوره أن يعيش عيشة بذخ وهناء ، كان أبعد الناس عن الرغبة في الحيـاة ، واكثرهم تشاؤماً وأشدهم وجوما وكآبة !

كان عاشقاً مغرما

وذلك الغرام المقيم الذى دب الى قلبه واستولى عليه وملك قياده ،

ذلك الغرام الذي حاول الامير عبثاً أن يغالبـه وينتزعه من صدره ، ذلك الغرام هو سبب كآبته ووجومه ، وهو أساس ذلك السر الذى تتحدث عنـه اليوم ، والذى لا يزال وسوف يظل من الاسرار المبهمة الغامضة ، التى لن يتوصل المؤرخون والباحثون الى رفع الستار عنها وتمزيق الحجاب عن حقيقتها

أحب الارشيدوق جان سلفاتور فتاة من بنات الشعب تدعى «ميلى ستوبل » وهي نمساوية مثله من سكان فينا . وكان الامير قد التقى بها للمرة الاولى في حفلة ساهرة ، فصعق لساعته وشعر أن هذه الفتاة ستلعب في حياته دوراً هاما ، وأنها ستقود خطواته في الايام المقبلة

وكان ما توقعه الامير العاشق

فقد أحب الفتاة الجميلة حباً جماً ، حباً أنساه فى كثير من الاحيان واجبه نحو أسرته ومركزه ومقامه ، حباً جعل من ابن الاشراف رجلا عادياً ، لا يختلف فى شىء عن غيره من الرجال الذين لا يجرى في عروقهم دم النبلاء والملوك

وما بلغ خبر غرامه أفراد الاسرة المالكة وعلى الخصوص الامبراطور فرانز جوزيف ، حتى ثار ثائرهم وانقضت صواعق غضبهم على المارق الذي لم يرع للاسرة العريقة حرمة ، ولم يحفظ لنفسه كرامة ، فراح يضع قلبه النبيل على قدمى فتاة حقيرة من بنات الشعب

وقامت في صدر الشاب العاشق ثورة نفسية هائلة ، وتلاطمت في ذلك الصدر الضيق أمواج العواطف المتباينة المتناقضة : التقاليد تدعوه الى انتزاع الغرام من قلبـه ، والحب يدعوه الى نبذ التقاليد والاصغاء الى صيحات الطبيعة

وتغلب الحب على التقاليد ،أو بعبارة أخرى على «الواجب» كما كان أهله يسمون تلك التقاليد

وغنى الارشيدوق العاشق مع معشوقته أنشودة الغرام تامة كاملة ، يعزفانها على أوتار قلبيهما المفعمين حباً ، في ذلك القصر البعيد ، الذى اختاره الامير النمساوي في وسط الجبال مأوى لحبيبته وعشاً لغرامه

واشتدت نقمة الاسرة المالكة عليه . واشتد في آن واحد تعلق الشعب به

وأشاع بعضهم أن الامبراطور فرانز جوزيف يسعى للتخلص من ذلك الامير الجموح الذى لطخ اسم الاسرة وشعارها وانطلق يحاكي الدهماء والرعاع في سيرتهم وسلوكهم

وفي تلك الليلة التي قضاها الارشيدوق جان سلفاتور مع صديقه أدولف سترنبرج في حانات فينا ، قال له بصوت عميق ينم على هياج نفسى شديد :

— لن يترك لى ذلك العاهل القاسى الفؤاد سبيلا للراحة والهناء . فلا بد لى من الرحيل لانى قطعت الرجاء !

* * *

في ٣٠ يناير سنة ١٨٨٩ وقعت في النمسا تلك الحادثة التي لا تزال ظروفها مجهولة وتفاصيلها مبهمة ، والتي تعرف في التاريخ بمأساة مايرلنج

فقد وجد الناس في غرفة واحدة جثتين هامدتين : جثة الارشيدوق رودولف ولى عهد النمسا والمجر ، بجانب جثة امرأة تدعى مارى فستيرا كانت عشيقته

وذهب الناس في تعليل هذه المأساة كل مذهب. ولا يزال الباحثون والمؤرخون الى اليوم يملأون الصحف والمجلات في تمحيص الحادث الدموي ، الذى راح ضحيته أمير نبيل وفتاة جميلة

وقيل ان للامبراطور فرانز جوزيف يدا في ذلك ، وإن شطرا من المسئولية يقع على كاهله

وبينما الناس يتناقلون خبر تلك الفاجعة الهائلة ويضربون أخماساً بأسداس في تعليلها ، إذا بنبأ آخر يطير من أحد القصور النمساويه ويتجاوبه الصدى في كل ناحية من أنحاء النمسا

لقد اختفى الارشيدوق جان سلفاتور دى هابسبورج واختفت معه ميلي ستوبل ابنة الشعب الفاتنة

واختلط الخبران . وامتزج نبأ انتحار ولي العهد بعد أن قتل حبيبته، بنبأ اختفاء الامير جان سلفاتور مع حبيبته

* * *

الى أين ذهب الهاربان ؟

وهل ترا حقيقة من ذلك القصر الذى رآهما الناس يدخلانه ولكنهم لم يروهما يخرجان منه ، أم ان الايدى الاثيمة قد وصلت اليهما في مقرهما المنيع واعتدت على حياتهما وأخفت جثتيهما ؟

إشاعات تناقلتها الالسنة . لكن الحقيقة ظلت مجهولة من الجميع

وظل الناس يتساءلون : أين الامير جان سلفاتور وأين عشيقته ؟

عبثاً حاولوا أن يجدوا في القصر أثرا يدلهم على شيء . فان القصر بقي محتفظا بسره كما يحتفظ القبر بعظامه

* * *

مرت الاعوام وتلتها أعوام . وقامت في اوربا حروب قلبت كيان الدول رأسا على عقب

وانهارت عروش واندثرت دول وتشتتت في الشرق والغرب أسر كانت بالأمس مالكة

ونزل الامبراطور الشيخ فرانز جوزيف الى القبر محنى الظهر رازحاً تحت أعباء السنين والمصائب والويلات

وانقشعت الغيوم بعد أن وضعت الحرب العظمى اوزارها . فاذا

بالامبراطورية الكبيرة المترامية الاطراف ـ امبراطورية النمسا والمجر ـ تتمزق وتتحطم وتقوم على انقاضها دول ودويلات

حينئذ ارتفع في الفضاء صوت جاء من بعيد ، من العالم الجديد ، صوت رجل فرنسي يدعى مسيو دي كريسي، وصاح بالناس قائلا : «انني أعرف مقر الارشيدوق جان سلفاتور النمساوى من آل هابسبورج ، الذي يبحث الناس عنه منذ سنة ۱۸۸۹ دون ان يقفوا له على أثر . فمن منكم يريد أن يراه ؟ »

لم يجبه أحد لان الحوادث التي تتابعت منذ ذلك اليوم قد أنست الناس ذلك الحادث التافه : امير يختفي مع حبيبته !

وماذا يقول مسيو دى كريسى الفرنسى ؟

إنه يدعى ان الامير النمساوى لا يزال على قيد الحياة ، وانه يسكن في جمهورية كولومبيا بامريكا الجنوبية ، فى قصر شيده على ساحل البحر مع المرأة التي احبها ثم تزوجها : ميلي ستوبل التي كانت جميلة وفاتنة وساحرة

ويقول ايضا ان الامير الشيخ لا يزال محتفظا بغرامه المقيم ، ذلك الغرام الذى تغلب على التقاليد والعادات والواجبات ، وحمل الارشيدوق جان سلفاتور على الرحيل عن وطنه بعد وقوع مأساة مايرلنج بايام معدودة

لنصدق مسيو دى كريسي الفرنسى ، ولنبعث على اجنحة الرياح الى ذلك القصر البعيد، على ساحل البحر في كولومبيا الاميركية ، تحيتنا الى الشيخ العاشق الذي عرف كيف يعيش هنيئا سعيداً مع حبيبته، في مأمن من شرور هذا العالم ومن كيد الكائدين ومكر الماكرين !

الجارية زليخة

في سنة ١٨١٠ للميلاد — الموافقة سنة ١٢٢٥ هجرية ، أرسل الباب العالى يطلب من محمد على باشا والى مصر ان يجرد حملة عسكرية لغزو الجزيرة العربية ، واخضاع الوهابيين الثائرين على الدولة العلية ، والانتقام من زعيمهم الامير سعود ، البطل المقدام والقائد المحنك ، الذى هزم الجيوش العثمانية التى سيرها السلطان لمحاربته ، وبسط سلطانه على الصحراء وجعل يهدد بادية الشام

فكر محمد على باشا مليا فى الأمر ورأى نفسه في مأزق حرج وموقف يتطلب الحذر والتريث

ان هو رفض ما يطلبه السلطان منه ، ففي هذا الرفض من الخطر مافيه . وقبول الدعوة الى محاربة الوهابيين معناه ترك القطر المصرى تحت رحمة المماليك الذين يتحينون الفرصة للايقاع بمحمد على واسرته والعودة الى سابق عهدهم فى وادى النيل

وعزم محمد على باشا بعد التفكير الطويل وبعد المداولة مع أبنائه على التخلص من المماليك وضربهم الضربة القاضية ، ثم اجابة السلطان الى طلبه وتنفيذ أوامره

وفى اليوم الاول من شهر مارس سنة ١٨١١ دعا محمد على باشا بكوات المماليك الى قلعة القاهرة ، لحضور الحفلة التي يقيمها طوسون باشا قبيل رحيله على رأس الجيش المصري الى الحجاز

ووقعت في ذلك اليوم مذبحة المماليك الهائلة ، التى لم ينج فيها من البكوات المدعوين ـ وكان عددهم اربعمائة وسبعين رجلا ـ غير واحد

فقط تمكن من الفرار على ظهر جواده الذي قفز به من فوق السور الى خارج القلعة

حينذاك فقط أمن محمد علي باشا شر المماليك ، واطمأن على ملكه ، وخلا له الجو في مصر لتأسيس الدولة المستقلة التي كان يحلم بتأسيسها منذ اليوم الذي وطئت قدماه أرض وادي النيل

وبعد أيام من ذلك الحادث التاريخي،خرج محمد علي باشا من قصره في شبرا ، وجعل يطوف في أنحاء القاهرة متفقداً قلاعها مشرفا على الاستعدادات الحربية التي أمر بها ، سائلا باحثا مستفحصا

وعاد في مساء ذلك اليوم الى قصره تعبا في حاجة الى الراحة ، وقد تأكد ان كل شيء في القاهرة يسير على ما يريد ويروم

وعندما وصل الى قصره وجلس في حجرته ، مثل أمامه حاجب من حجابه الامناء . وبعد أن حياه بالانحناء الى الارض قال :

ـــ ان الجارية زليخة يا مولاى مشرفة على الموت . وقد طلبت إلينا ان نحمل إليك رغبتها الاخيرة . فهي تريد أن ترى سيدها وتقبل يده قبل أن تفارقها الحياة

وكان محمد علي باشا يعطف على تلك الجارية عطفاً شديداً ، ويسأل دائما عنها ، ويبعث في طلبها من وقت الى آخر ، لكي يعلم منها اذا كانت في حاجة الى شيء

من هي زليخة التي ينظر اليها سيد مصر هذه النظرة والتي يهمه أمرها الى هذا الحد ؟

هي امرأة في الاربعين من العمر ،سمراء اللون حادة البصر طويلة القامة عذبة الصوت جميلة جذابة . . .

جاءت الى قصر محمد علي باشا قبل ذلك الوقت بسنوات ووقفت على مقربة من الباب تنتظر قدومه . وعندما أقبل بموكبه أرادت أن تتقدم

منه فزجرها الجندي الواقف هناك للحراسة وابعدها عن المكان

لكن الوالي رآها من بعيد ، ورأى الجندى يسيء معاملتها فأمر أن يتركوها وشأنها ، وطلب اليها ان تفضى اليه بشكواها اذا كانت قد جاءت اليه شاكية

فألقت المرأة بنفسها على قدميه وبكت بكاء مرا ، وقالت ان الاقدار تعاكسها وانها تجد نفسها فى هذا العالم وحيدة لا نصير لها ولا صديق ولا معين ، فجاءت الى محمد علي باشا ورجاؤها الوحيد ان يرضى بأن يكون لها صديقا ونصيرا ومعينا

لم تطلعه على أكثر من ذلك ، ولم تخبره من هي ولا من أين أتت ، ولماذا يئست من الحياة ومن الناس . فاكتفى محمد على باشا بتلك الكلمات القليلة التى فاهت بها المرأة الغريبة . وأمر بأن يفسح لها مكان في القصر فتقيم فيه معززة مكرمة

ومنذ ذلك الوقت اقامت « زليخة » في قصر شبرا . وجعل محمد على باشا يغمرها بعطفه والتفاته كأن شعوراً خفيا ينبئه بأن تلك الجارية انما هي ضحية من ضحايا الظلم والجور والاستبداد ، وانها ما لجأت اليه الا هربا من خطر داهم وعدو مجهول ، وما علم بعد ذلك من أمرها غير شيء واحد ، وهو أنها ابنة رجل مصري من الصعيد وان امها زنجية سودانية

وجاء ذلك اليوم الذي علم فيه محمد علي باشا ان زليخة قد أشرفت على الموت ، وانها ترغب في رؤيته قبل ان تغادر هذا العالم الى العالم الآخر. فأسرع الى الحجرة التى تنام فيها . . .

وسمع منها القصة الآتية :

— كان ابى يدعى « عمار السيوطي » وهو أحد رجال « البرديسى » وجندي من جنود المماليك ، حارب في صفوفهم وقتل في احدى المواقع

الحربية بعد موت امى بسنتين ، فتركني في هذا العالم وحيدة معدمة

« ولما علم البرديسى بأمري احضرنى اليه ، وبعد ان اقمت عنده بضعة أيام ارسلنى الى « مراد بك » الذي ضمني الى جواريه فى قصره

« ولم تطل اقامتى عند مراد بك اكثر مما طالت عند البرديسى . فقد أرسلني ذلك الرجل القاسي الفؤاد الى مدينة عكاء ، هدية منه الى واليها احمد الجزار مع قافلة حملت اليه كثيرا من النفائس

« وكنت في قصر الجزار في عكاء عند ما غزا الافرنج هذه البلاد ومشى قائدهم بونابرت على رأس جيش عظيم لفتح ذلك الحصن المنيع وطرد الجزار من ولايته . وقد مرت علينا جميعاً في ذلك الوقت أيام رهيبة ذقنا فيها الامرين ، وقاسينا من ويلات الحرب واهوالها ما لم يقاسه كثيرون

« ثم رحل جيش بونابرت عن المدينة بعد ان فشل في الاستيلاء عليها . وعادت الامور الى حالتها السابقة والمياه الى مجاريها ، الى ان ان حدث ذات يوم في القصر حادث اسفر عن فاجعة دموية مؤلمة

« كان عدد السرارى في القصر يزيد على الثلاثين ، وكنت أنا واحدة منهن . ولم يحدث مني قط ما يستحق التأنيب ويستوجب غضب سيد القصر وسيدى ، احمد باشا

« لكن واحدة منا ، واسمها زليخة مثلى ، كانت تذنب مع أحد كبار الموظفين ، وكنا جميعاً نعلم بعلاقتها الأثيمة بذلك الموظف ، لكننا حفظنا السر وتكتمنا ، خوفا من العقاب الذى قد ينزله الجزار بالجميع على السواء

« لكن ذلك الرجل ، الذى كان يحيط نفسه بالجواسيس والزبانية المخلصين ، تمكن في النهاية من هتك الحجاب عن ذلك الأمر المعيب . وجعل يراقب زليخة بنفسه مراقبة شديدة ، حتى فاجأها ذات يوم وهى

تأخذ من خادم في القصر زهرة وردة بعث بها اليها عشيقها ــ وكان يقوم بوظيفة خازندار في قصر الوالى

« وكانت تلك الوردة آخر ابتسامة من ابتسامات الحياة لتلك المرأة الشقية التعسة . فقد نزل الجزار الى حديقة القصر وارسل في طلبها فأسرعت اليه ، وكان اسراعها الي الموت . فان الجزار استل سيفه وقطع رأسها بضربة واحدة . ثم نادى جماعة من « الهوارة » الذين كانوا في خدمته وامرهم بان ينزلوا السرارى جميعاً الى الحديقة الواحدة بعد الاخرى ويقطعوا رءوسهن أمامه ، حتى يأمرهم بالكف عن ذلك

« كان الجزار نمرا في صورة انسان ، دائم التعطش الى الدماء ، يروى ظمأه منها في الصباح فيعاوده التعطش اليها في المساء . وقد صدع الهوارة في ذلك اليوم بأمره وأتوا بالسراري اجابة لطلبه . وجعلوا يقطعون رءوسهن على مرأى منه وهو يضحك ويطرب ويغمس يديه في الدماء المتدفقة من النحور . . .

« وكان أحد أولئك الجنود يعرفني ، وهو مصري يامولاى من ابناء دمياط ، فأبلغني الخبر ومهد لى سبيل الفرار واخرجني من القصر خفية بعد أن زودني بالماء والطعام ، وطلب الى ان اهرب من المدينة واعود الى مصر اذا استطعت

« فعملت باشارته وغادرت القصر بعد ان علمت منه ان الهوارة قد ذبحوا عشرين امرأة من السراري ، وان الجزار لايزال يطلب المزيد

« ولا احدثك يا مولاى عما قاسيته بعد فرارى من اهوال وآلام . فقد قطعت المسافة بين عكاء ومصر مشياً على قدمي . وبلغ الجزار خبر فراري فاطلق في اثرى جماعة من زبانيته لم يتمكنوا من العثور علي بالرغم من انني التقيت بهم وعرفتهم

« وفي اليوم الذى رأيتني فيه على باب قصرك ، كنت قد قضيت في هذه البلاد سنوات عديدة ، تارة اخدم في المنازل ، وتارة اتسول في الطرقات، دون ان ألاقى من الناس شيئاً غير الظلم والطمع والاستبداد . وقد أنقذتنى من العذاب يا مولاى . واذا كنت الآن اشعر بالحياة تنسل من جسمي فاني ارحل عن هذا العالم سعيدة جدا، لانك قد انتصرت على اعدائك ، وأبدت المماليك الذين عاثوا في هذه الديار فسادا، واردت ان اطلعك على سر حياتى فلم تبخل علىّ بتحقيق هذه الرغبة

« فليحقق الله رغباتك واmانيك، ويكلل بالنجاح اعمالك ومساعيك، ويكتب النصر لك ولابنائك من بعدك ! »

***

هذا ما قالته زليخة لمحمد علي باشا قبل موتها ، في اليوم الثاني عشر من شهر مارس سنة ١٨١١ في قصر شبرا بضواحى القاهرة

الجارية الارمنية

اكتوبر سنة ١٩١٨

جنود الحلفاء يجتاحون فلسطين ويجتازون حدود سورية، والأمير فيصل بن الحسين يهاجم ميسرة الاتراك بجموعه المختلطة ، وهي أشبه بالعصابات المسلحة منها بالجيش النظامي . والدروز يخرجون من عزلتهم وينحدرون من معاقلهم وينقضون كالصواعق على فلول المنهزمين

أسراب من العقبان الخاطفة تطارد أفواجاً من الحشاش الطريدة الهائمة !

والجرحى كثيرون يفدون من كل ناحية وصوب، ينشدون العناية وقد ضاقت بهم الملاجىء والمستشفيات

كنا في « العقبه » وكان مئات من الجرحى والأسرى والمنكوبين ينتظرون الباخرة التى أعدت لنقلهم من تلك البقعة الحارة الجرداء الى وادى النيل المبارك ، الى القاهرة المحروسة المضياف

أقبلت الباخرة تتهادى فوق مياه الخليج وتشق عبابه . فاتجهت اليها النواظر وخفقت لمقدمها القلوب . لكنه فرج ما لبث أن زال وأمل سرعان ما أخلي مكانه لليأس والخيبة

القت الباخرة مرساها ، ونزل الى البر ربانها ، وأبلغ أولياء الامر أن باخرته معدة لشحن البضائع لا لنقل الركاب ، وأنها صغيرة ضيقة ، وأن ليس بوسعه أن يقبل منا اكثر من مائة راكب تدعو الضرورة القصوى الى ترحيلهم

لكننا صعدنا اليها اكثر من مائتين بين ضابط وجندى وأسير

ومنكوب وجريح . وتراكمنا في جوفها وعلى ظهرها بين اكياس الدقيق وبراميل الزيت واكداس الحبال

وأفسح الاصحاء الاقوياء مكاناً للعجزة الضعفاء . وقامت بنا الباخرة - وتدعى « اريتوزا » - تزحف ببطء وتتمايل كالعرجاء ذات اليمين وذات اليسار

وجعلنا نضرع الى الله أن يلطف بنا ، وأن يحرس الاريتوزا فتصل بنا سليمة سالمة الي السويس ، الى دار الامان !

خرجت الباخرة من خليج العقبة وجاوزت «رأس محمد» وحاولت عبثاً مقاومة التيار وقهره لكي تلجأ الى خليج السويس . فقد هبت هناك زوبعة شديدة وانطبق علينا وصف الشاعر فكنا : « كريشة في مهب الريح ! »

وتصاعد أنين الجرحى وقد انتفضت عليهم جراحهم . وارتفع صياح المنكوبين ممزوجاً بولولة المنكوبات ، اذ أن الجنس اللطيف كان له من يمثله في تلك « الشحنة » البشرية

كان معنا عشرون شخصاً من الارمن ، فروا من بلادهم او من سورية ، وقذفت بهم الاقدار الى بادية الشام ، حيث التقطهم قوم من انصار فيصل وجاءوا بهم الى معسكر العرب . فصدرت الاوامر بنقلهم الى مصر وضمهم الى من سبقهم اليها من ضحايا الحرب والهاربين من جحيمها

وكان نصف عددهم من النساء الثكالى والزوجات المترملات

جعلنا نواسي أولئك المساكين ، ونعيد الامل الى نفوسهم والشجاعة الى قلوبهم ، الى أن هدأت الرياح وسكن العجاج وزال الخطر فانبسطت الاسارير وابتسمت الثغور

ولفتت نظرنا على الخصوص بين أولئك الارمن امرأة في العقد

السادس من عمرها ، عليها مسحة النبل وأمارات النجابة ، يحيطها أبناء جلدتها بأنواع الاكرام والاجلال ، ولا يترددون في تضحية راحتهم في سبيل راحتها

دفعنا التطفل وحب الاطلاع الى سؤالهم،فعرفنا من أمر تلك المرأة العجب العجاب

إنها الآن فقيرة معدمة ، لا أمل لها في الحياة ولا رجاء . لكنها كانت فيما مضى صاحبة ثروة وجاه . وعاشت عيشة ترف ودلال وتقرب من السلطان عبد الحميد يوم كان عبد الحميد في أوج عزه وسطوته

* * *

هى أرمنية من أسرة نزحت من القوقاز واستوطنت أرضروم . كان ابوها من كبار تجار الاغنام ، ماتت زوجته وهي في الثلاثين من عمرها ، وظل يسهر وحده على ابنتيه ويعتني بتربيتهما

وكثيراً ما كان الاب « أفديكيان » يضطر الى التنقل في المزارع والجبال ، فتبقى الفتاتان في البيت في حراسة خادمه أمينة عجوز

وكان الارمن في ذلك العهد تحت رحمة الاتراك ، لا تمر سنة دون أن تنزل بهم أنواع الاضطهاد والارهاق

حدث مرة ان وقع شقاق بين تاجر الاغنام وبعض الموظفين،فاضطر المسكين الى الرحيل عن بلدته مع عائلته ، خوفا من حدوث ما لا تحمد عقباه ، وهرباً من انتقام خصومه وبطشهم به وبعائلته

لكنه فر من شر للوقوع في اسوأ منه . فقد هاجمه في الطريق لصوص قطاع الطرق وذبحوه مع الخادمة وحملوا الفتاتين الى مغاورهم ثم القوهما بين يدى « أفرام باشا » تاجر الرقيق مقابل مبلغ من المال

وباعهما افرام باشا في الاستانة،فاشتراهما القائد العسكرى وشاكر

احمد باشا ، وقدمهما هدية لمولاه السلطان عبد الحميد في عيد جلوسه الهمايوني في سنة ١٨٨٥

* * *

كان عبد الحميد سريع الانفعال كثير الشكوك ، يرتاب في كل حركة تبدو من حاشيته ، نزاعاً الى سفك الدماء مخافة ان يهدر دمه ، متفننا في ازهاق الارواح محافظة على حياته

لكنه كان كبقية الرجال ذا قلب حساس يخفق للجمال ، وصدر تختلج فيه لواعج الغرام

ولم ينج ذلك السلطان القابض على زمام مملكته المترامية الاطراف من الوقوع تحت سلطان الحب الذى لا مرد لارادته ، فانقاد لنداء القلب صاغرا ذليلا ، ومال عنقه تحت ذلك النير القاهر ، كما اشادت الشعوب ومالت أعناقها تحت نير عبد الحميد صاغرة ذليلة

أحب سجين «يلديز» صغرى الفتاتين . وعلق بها فؤاده وتضاعف بسببها أرقه . وأحس بأن هذه الأرمنية الحسناء سوف تلعب في حياته دوراً غير الذي تلعبه المئات من السرارى والجواري ، اللواتى كانت تعج بهن قصوره

أرسل في طلبها ذات يوم . فدخلت عليه في مخدعه مع «جعفراغا» رئيس الخصيان . وكان عند السلطان أحد كتبة أسراره الضابط علي فؤاد بك

نظر اليها مقبلة فالتفت الى الضابط وقال :

— دعني وانصرف يا علي بك . لكنني أسمح لك بأن تمتع عينيك بالنظر الى هذا الوجه المنير . فتذكر في المستقبل أنك رأيت أجمل سرية في قصر عبد الحميد

نهض الضابط وحدق بصره وهو خارج إلى تلك الفاتنة التى فاق

جمالها كل جمال وسما بهاؤها على كل بهاء . ويا ليته لم يرفع الطرف ولم ينظر !

فقد أخذ لساعته بذلك الحسن المفرط . وشعر بأن سهماً حاداً قد انطلق من مقلة الفتاة وأصاب فؤاده في الصميم

كان قلب الضابط خلياً فخرج من لدن السلطان عاشقاً !

وجلست الحسناء أمام عبد الحميد وعلى موطيء قدميه ، فجعل يداعب بشرتها الناصعة البياض ، ويعبث بجدائل شعرها ، ويبثها مكنونات صدره ويكشف لها عن أعماقه :

— انك تشبهين « نعمت » الفتاةالتركية التي كنت أحبها وأغدق عليها النعم ، والتي قصفت يد المنون غصن شبابها رطباً . فدعيني أطلق عليك هذا الاسم احياء لذكرى الماضي

— افعل ما يحلو لك يا مولاى . فأنت السيد المطاع

— اذن يا نعمت ، أريد أن تأتيني كل ليلة فى مثل هذه الساعة ، فترسلى شعاع الفرح في ظلام حياتي ، وتغريد البلابل في السكون الذى يكتنفني

— سأجيء يا مولاى

— أليس لديك رجاء تفضين به إلىّ ؟

— لدي رجاء لو استجابه مولاى لجعلنى سعيدة شاكرة . ولحفظت له من أجله أجمل الذكرى

— أى رجاء هذا ؟

— تقيم في هذا القصر أخت ليس لى سواها وليس لها سواي . فهل يأمر مولاي بأن تعامل بين النساء كما أعامل أنا بينهن ؟

— أجل

وتناولت الفتاة طرف الرداء السلطانى وقبلته . فأخذ العاشق المتيم

رأسها بين يديه ، والصق فمه بفمها ، وامتص من شفتيها الورديتين حلو الرضاب

* * *

وظلت « نعمت » مدة من الزمن معبودة سلطان البرين وخاقان البحرين ، وقد جمعت هى وأختها من الجواهر والحلى اكداساً

لكنهما كانتا تحنان الى وطنهما ، الى الربوع التي لعبتا فيها صغيرتين ، الى الجبال التى طالما طافتا في وعرها وهضابها ، الى أبناء قومهما الذين لا يعرفون من أمرها شيئاً والذين كانوا يعتقدون أنهما قد أصبحتا في عالم الأموات

كاشفت عشيقة السلطان عشيقها ذات ليلة برغبتها في السفر الى ذلك الوطن . وأقسمت له أنها ستعود الى يلديز دون أن تفكر في الهرب

لكنه رفض السماح لها بقضاء رغبتها . وداخلته الريبة في سلوكها وجعل منذ ذلك الوقت يضيق عليها الخناق ويضاعف المراقبة ويبث الاعين في أثرها

وكانت الفتاة قد زجرت الضابط على فؤادبك الذى راودها مراراً عن نفسها ، وأعرضت عنه وأنبته على جرأته وهددته برفع شكواها الى السلطان ان لم يرجع عن غيه ويكف عن ملاحقتها

فحمل الضابط موجدة على المسكينة وأضمر لها الشر والعدوان . وبات يرقب الفرصة للايقاع بها والانتقام منها

وهل من عدو أشد خطراً من العاشق اذا ما رام انتقاماً بعد الصد والهجران ؟

علم الضابط على فؤاد بان « نعمت » تقدمت الى عبد الحميد برجاء وأنه لم يجبها اليه . فعول على اقتناص هذا الظرف الملائم وضرب

الحسناء المعتصمة ضربة تصيبها في صميم حياتها

واغتنم فرصة وجوده في اليوم التالى في حضرة مولاه ، فاستأذن فى الكلام مدعياً أن لديه أمراً يرغب في اطلاع السلطان عليه ، وأن ذلك الأمر يتعلق بسلامة الدولة والجالس على العرش

أذن له عبد الحميد بالكلام فطفق الضابط المفتري يقص على مولاه خبرمؤامرة وهمية يدبرها قوم من الأرمن لاغتياله . ثم ختم حديثه قائلا :

— لقد وقع اختيار أعداء جلالتكم على امرأة من نساء القصر لتنفيذ خطتهم الجهنمية والاقدام على فعلتهم الشنعاء

فارتعد عبد الحميد وقال :

— أية امرأة هذه ؟

ونظر الى كاتب أسراره لاهثاً مستفهما . فسكت الرجل كأنه يتردد في اماطة اللثام عن سر هائل . لكن السلطان انتهره صائحاً :

— آمرك أن تتكلم يا على وأن تفضى الى بكل ما تعلمه

فقال الواشي :

— إن المرأة التى أقصدها هي أحب السراري الى جلالتكم

— أفصح !

— هي نعمت الأرمنية !

فدوى صوت عبد الحميد في أرجاء القاعة منادياً :

— جعفر اغا . . . جعفر اغا . . .

* * *

ودخلت الارمنيتان على السلطان في تلك الليلة ، اجابة لطلبه ، وكان جالساً على مقعد من المخمل الاسود ، أمام نافذة تطل على حديقة القصر ، مسنداً ذراعه اليمنى على وسادة خضراء ، باسطاً ذراعه اليسرى على حافة النافذة

نظر الى المرأتين نظرة طويلة كثيرة المعاني ، ثم أشار الى رئيس الخصيان بأن يبتعد ويقف بالباب حارساً

والتفت الى نعمت واختها وقال :

— نعمت . لدى رجاء خاص أرجو أن تجيبيني اليه في الحال ، وبعد ذلك أعدك بأن اطلق سراحك من هذا القصر ، وابعث بك الى حيث تشائين

— مرني يا مولاى فانا رهينة اشارتك !

— ارقصي !

فنظرت اليه نعمت حيرى مدهوشة

— قلت لك ارقصي ، لقد قيل لى انكما ـ أنت واختك ـ تحسنان الرقص ، وبي رغبة شديدة الى رؤيتكما ترقصان

فتبادلت الاختان النظرات ، وما كانتا يوما من الأيام تحسنان الرقص كما ادعى السلطان ، ولكن لابد لهما من اجابته الى طلبه

فرقصت نعمت ، وفعلت أختها مثلها فرقصت ، وجعل عبد الحميد ينظر اليها هادئاً صامتاً هدوء أبي الهول وصمته ، ثم قال لنعمت :

— أما قيل لك يا نعمت إنني أحسن اطلاق النار ايما احسان ، وانني لا اخطيء المرمى برصاص المسدس ؟

فزادت دهشة نعمت لهذا السؤال واجابت :

— قيل لى ذلك يا مولاى ، وقيل لى ايضا انك تكتب اسمك الكريم على لوحة خشبية برصاص المسدس

— لقد صدقوا . ضعي اذاً أصبعك على ثديك الأيسر ، ولا تتوقفي عن الرقص . . . أجل . . . هكذا . . . ألا تشعرين الآن بخفقان قلبك وراء هذا الثدي ؟ . . ما قولك اذا اوقفت هذا الخفقان برصاصة مسدس ؟ . .

فارتعدت المسكينة خوفا وضغطت بيدها على ثديها

ودوى في القاعة صوت طلق ناري . . .

وسقطت نعمت على الارض جثة هامدة ، وقد اخترقت الرصاصة قلبها ووضعت حداً لخفقانه . . . ونفذ عبد الحميد وعيده والقيت الجثة في البوسفور بعد أن اثقل عنقها بحجر. ونسي السلطان أو تناسى تلك الساعات الحلوة التي قضاها بين ذراعي نعمت الارمنية الحسناء التي أحبها ، والتي ارداها لمجرد وشاية كاذبة ، مضحيا بغرامه في سبيل حياته . وما كانت المسكينة تفكر يوما في الاعتداء على تلك الحياة !

* * *

وظلت اختها الكبيرة في القصر منبوذة مهملة

وظل الضابط علي فؤاد في القصر ايضاً ، وقد نال حظوة في عيني مولاه الذي اعتقد فيه الامانة والاخلاص

لكن الضمير المؤنب لم يرحم ذلك الواشي الذي بات يتألم ويندم على ما بدر منه

ولم يطق صبراً على كتمان السر دفيناً في صدره ، فباح لأخت ضحيته بكل شيء . وطلب اليها ان تأمره بعمل يقدم عليه تكفيراً عن ذنبه وإساءته

فقالت له الأخت الحزينة :

— انقذني من الجحيم الذي أعيش فيه هنا . وليسامحك الله ويغفر لك ما فات !

وبواسطة ذلك العاشق الذي دفعه حبه الى الاجرام ، تمكنت الاسيرة من الفرار من يلديز والعودة الى بلادها حاملة جواهرها وحليها

وكتمت أمرها أعواماً عديدة ، الى ان حدث ذلك الانقلاب السياسي الذي انهار على أثره عرش عبد الحميد ، فأطلعت القوم على سرها ، فأنزلوها في نفوسهم منزلة الاكرام والاجلال ، وقضت ايامها في بحبوحة من العيش

ودارت الايام دورتها

ونكبت المرأة من جديد في أثناء الحرب العظمى كما نكبت من قبل في ريعان شبابها ، فهامت على وجهها في البراري والقفار

وهي التي التقطها العربان في بادية الشام وحملوها مع رفاقها المنكوبين الهاربين الى العقبة ، فعلمنا قصتها على ظهر الباخرة «اريتوزا» في عرض البحر ، في طريقنا الى السويس ، في اكتوبر سنة ١٩١٨

الرؤيا

— أرجو أن تغلق الأبواب يا دولة الوزير وأن تمنع الناس عنها . ان ما أود الافضاء به اليك من الخطورة بمكان

— صدقت يا سيدى مادام الأمر كذلك . ان للجدران آذانا تسمع وعيونا ترى . ثم اننا في قصر يلديز ، ينبغي لنا ألا ننسى ذلك

ونهض « أبو الهدى » من مجلسه مسرعاً نحو باب الحجرة ، وبعد أن أفهم الحارس أن الدخول غير مباح لأحد، عاد الى محدثه الضابط النمساوى « ستيسل » وقال :

— لقد خلا لنا المكان يا سيدى . تكلم

— جئتك في حاجة لابد لك من قضائها : انني أحمل اليك رسالة من صاحب الجلالة الامبراطور ، يلح فيها عليك بالقبول ويرضى بالشروط التى تمليها علينا

— حسن جداً . ان امبراطور النمسا صديق قديم ، تربطني به أواصر المحبة والاخلاص ، ويعز عليّ أن أرفض له طلباً . ولكن ، هل قبلتم الثمن الذى وضعته للخدمة التى تطلبونها مني ؟

— قبلنا

— أين المرأة إذن ؟

— في الفندق

— علي بها . واحمل معك غداً التحويل بالمبلغ على أحد المصارف الانكليزية

— سأفعل

وهكذا تم الاتفاق بين رسول النمساويين وأبي الهدى – نديم عبد الحميد الثاني ونجيه ومؤتمنه – على ادخال السيدة « سوفي متز » في حرم الرجل ، والادعاء أمام السلطان أنها الزوجة الجديدة التي وقع عليها اختيار أبي الهدى

* * *

كانت سوفي متز هذه راقصة متهتكة ، طافت في بيوت الدعارة وأماكن الفجور في النمسا ، تعرض محاسنها للبيع والشراء كما تعرض السلع في الأسواق

ساعدها الحظ وابتسمت لها الأقدار . فتقربت من رجال البلاط النمساوي ، الذين توسموا فيها المكر والخداع ، فقرروا فيما بينهم ارسالها الى يلديز للتجسس على السلطان وحاشيته

وكانت النمسا في ذلك العهد تنافس روسيا في التوسع من ناحية البلقان ، وبسط النفوذ على أطراف السلطنة العثمانية ، محاولة أن تستميل اليها الجالس على عرش آل عثمان ، عبد الحميد الثاني « الرجل المريض » كما كانوا يسمونه

لكن ذلك الرجل المريض كان على جانب عظيم من الفطنة والذكاء والدهاء ، يدرك ما ينصبه له أعداؤه من حبائل ويكيدونه من مكائد ، فيلعب بهم جميعاً ويضحك منهم جميعاً

حاولوا كثيراً أن يسيطروا عليه بواسطة النساء ، لكن السلطان لم يكن من أولئك الرجال الذين يستسلمون استسلاما أعمى لنشوة الغرام ويسكرهم الحب بين أحضان الحسان . نعم انه كان يميل الى « الجنس اللطيف » ولكنه لم يكن زير نساء كما توهموا ، بالرغم من أن قصوره كانت تغص بالسراري وتعج بالجواري

كانت أعصابه تعبة وقواه منهوكة . وكان اذا ما اراد أن يذوق

طعم الراحة يعمد الى العقاقير والجواهر المنبهة ، يقاوم بواسطتها عبء السنين ووطأة الامراض

لكنه كان ذا اعتقاد راسخ بالخرافات ، مولعاً الى حد بعيد باستطلاع الغيب وقراءة الكف ، مؤمناً بنبوءات السحرة والمنجمين ، دائم الرغبة في محادثة الأرواح وسؤالها عما يكنه له المستقبل في طياته وما يسطره له القدر في صفحاته

وكان « أبو الهدى » يذكي في نفس السلطان هذه الرغبة ويزيد ذلك الاعتقاد رسوخاً ، ويثبت له بمختلف البراهين والأساليب أن للاحلام علاقة بالحياة ، وأن أرواح الأبرار والاشرار تحوم ليلا في مساكن الأحياء من الناس ، وتفضي اليهم بما يرغبون في معرفته من ماض وحاضر وآت

وذهب أبو الهدى الى أبعد من ذلك فجعل السلطان يصنع بيديه تماثيل البعض من أعدائه ورسومهم ، لكي يستحضر له الارواح في دجى الليل ويقدم لها تلك الرسوم والتماثيل فتنتقم من أصحابها في النهار وتثأر للسلطان منهم على اعتدائهم وخيانتهم

ذلك هو الرجل الذى وقع عليه اختيار النمساويين لكي يكون لهم عوناً على عبد الحميد

ولما كانت المرأة سوفي متز من اللواتي نبغن في تفسير الأحلام وقراءة الكف ، فقد اختارها القوم أيضاً لكي تعاون نديم السلطان في مهمته

وكان يؤهلها لذلك على الخصوص اتقانها اللغة التركية ووقوفها على دخائل القصور لانها كانت تتردد عليه وتقيم بين نسائه

تم الاتفاق اذن بين الضابط ستيسل وأبي الهدى

وفى اليوم التالى ، جيء الى الرجل بالمرأة وبالتحويل على أحد المصارف الانكليزية

* * *

جلس ابو الهدى يوماً كعادته ، يقص على السلطان حوادث الامس وينقل اليه تقارير الزبانية والجواسيس

وبعد أن انتهى من هذه المهمة اليومية ، ولفق لسيده ما شاء من الاوهام والوشايات ، سكت هنيهة ثم استطرد قائلا :

— والآن يا مولاي دعى أفضى اليك بمفاجأة طريفة أعددتها لسيدى وولى نعمتى منذ أسابيع

فرفع السلطان رأسه وبرقت عيناه وسأل :

— أية مفاجأة هذه يا صديقى الأمين ؟

— لقد تزوجت منذ أكثر من شهر امرأة شركسية هي على اتصال دائم بعالم الارواح ، تستحضر منها من تشاء وتحادث من تشاء . وقد جعلتها تقوم على مسمع ومرأى منى بتجارب أدهشتنى كما ستدهشك يا مولاى . فهل تسمح أن آتيك بها ؟

— أجل . انا الآن في أشد الحاجة الى معرفة ما تخبئه لنا الغد . أريد أن أعلم هل كانت التدابير التى اتخذناها كافية للقضاء على الحركة الثورية التى يقوم بها رجال تركيا الفتاة ؟ انى لا أثق كثيراً بذلك العهد الذي قطعوه على أنفسهم باحترام شخصى وعدم الاسترسال في دس الدسائس ونشر الدعوة التى يعملون لها . ينبغى أن أضربهم الضربة القاضية قبل أن يتمكنوا من استمالة الجيش اليهم . علي بالمرأة في الحال

ومثلت سوفي مثر ـ التى أطلق عليها أبو الهدى اسم « زينب التركية » ـ في حضرة سلطان البرين وخاقان البحرين

وظلت أياماً تفسر له الاحلام وتستطلع الغيب وتستحضر الارواح

وكانت الاحلام كلها تنبىء بالفرج العاجل ، بينما الغيب ينحسر عن حوادث جليلة جميعها في مصلحة العرش ، والأرواح تبشر السلطان بالنصر القريب والفوز المبين

عادت الطمأنينة الى نفس « الرجل المريض » واعتقد أن زمام الامور في قبضته ، وأنه سيهزم أعداءه فى داخل البلاد كما هزمهم في خارجها

ومرت الايام والثائرون يعدون عدتهم في الخفاء ، وينشرون دعوتهم ومبادئهم في طول السلطنة وعرضها ، داعين أصحاب الرأي وأباة الضيم الى هدم معقل الظلم والاستبداد ، ورفع لواء الرقي والحرية ، والسير بالشعب في مضمار الحياة الحقة

والسلطان غافل عما يجري وراء أسوار قصره وجاهل بالحفرة التي يحفرها له خصومه

لكن أبا الهدى أدرك أن الساعة العصيبة قد دنت ، وأن ذلك البريق الذي يلمع في الافق سيتلوه هزيم الرعد وقصف الصاعقه

أسرع الى زوجته الزائفة وأطلعها على مخاوفه ، وطلب اليها أن تعمد الى آخر سهم في جعبتها فترشقه ، على أمل أن يصيب الهدف ويغنم الاثنان ما يرغبان فيه : اتجاه السلطان الى دولة النمسا ووضع نفسه تحت حمايتها . . .

* * *

وفي الثالث من شهر ابريل سنة ١٩٠٨ قبيل الظهر ، دخل ابو الهدى على سيده مصطحباً معه زوجته . وقصت الزوجة على السلطان الرؤيا التي هبطت عليها من السماء في الليلة السابقة :

— رأيت يا صاحب الجلالة نسرين أسودين يحلقان في الفضاء . هبط واحد منهما واستقر على قبة القصر اليمنى . وتبعه الآخر واستقر

على القبة اليسرى . ثم ضم الاثنان أجنحتهما وأرسلا في الفضاء صيحات مزعجة . حينذاك رأيتك خارجاً من القصر وقد القيت على كتفيك الطيلسان الارجواني . وبسط النسران أجنحتهما من جديد وطار ا اليك . وبعد أن رفرفا لحظة فوق رأسك أخذاك بين الاجنحة التي انضمت عليك كما تنضم أذرع الأمهات على البنين . لقد عرفت النسرين يا مولاي : هما النسران النمساويان !

سكت عبد الحميد واكفهر وجهه . ثم سأل :

— وما معنى هذه الرؤيا ؟

— انه يجب عليك يا صاحب الجلالة أن تطلب من صديقك الامبراطور فرانز جوزيف النمساوى أن يحمي شخصك المحبوب ويمنع أعداءك الثائرين عليك من تنفيذ خططهم والاعتداء على عرشك

* * *

وفي اليوم الرابع من ذلك الشهر ، قالت المرأة للسلطان إن الرؤيا قد لازمتها طول ليلها

وفي اليوم الخامس أيضاً . . .

وفي اليوم السادس والسابع كذلك . . .

وفى اليوم الثامن نهض السلطان عبد الحميد من نومه مذعوراً وأرسل في طلب أبي الهدى وزوجته

ولما مثلا بين يديه صاح بصوت متهدج :

— الرؤيا ! . . . الرؤيا ! . . . لقد رأيت النسرين وأخذاني بين أجنحتهما كما فعلا امامك يا امرأة . . .

— الأرواح الساهرة عليك يا مولاى تملى ارادتها . . .

— اذن . لنكتب الى صديقى الامبراطور . . .

هكذا اثرت النمساوية في مخيلة السلطان ، فجعلته يرى في نومه

الحلم الذي ادعت أنه عاودها اربع مرات . فاعتقد أن الارواح التي تعطف عليه وتحرس حياته تشير عليه بالالتجاء الى النمسا وطلب حمايتها . . .

فتناول ورقة وسطر عليها بيده برقية الى الامبراطور فرانز جوزيف . . .

وظل يتردد يوماً كاملا قبل ارسالها . . .

لكنه في اليوم العاشر من شهر ابريل ، قرر أن يسلمها الى مكتب البرق بعد أن وضعها بالارقام المتفق عليها

وأرسلت البرقية . . .

وصادرها الموظفون المنتمون الى حزب تركيا الفتاة وحلوا أرقامها وفهموا معناها ، وحملوها الى أنور باشا ونيازى بك وصحبهما . .

وحلت الكارثة بالسلطان وأتباعه !

فقدكان الاحرار من الاتراك قد اكتفوا بنتائج الثورة الاولى في سنة ١٩٠٧ وقبلوا أن يظل عبد الحميد جالساً على عرش آل عثمان . ولكن تلك البرقية أزاحت النقاب عن مقاصد السلطان ونيانه . فخاف زعماء الثورة على أنفسهم وعلى الدستور الذى انتزعوا الموافقة عليه من عبدالحميد انتزاعاً ، فقرروا اسقاط الطاغية والتخلص منه الى الابد

وفي اليوم الحادى عشر من ابريل سنة ١٩٠٨ كانت ثورة الجيش العثمانى في الآستانة

وفي السابع والعشرين من ذلك الشهر ، دخل الجيش قصور يلديز وأرغم عبد الحميد على التنازل عن العرش

* * *

أما سوفي متز الشركسية الكاذبة والدجالة الجاسوسة ، فقدتوارت

عن الانظار منذ ذلك اليوم واختفت آثارها ، ولم يعلم أحد ماحل بها

وقد ظل ابو الهدى نفسه يجهل مقرها ، فمات قبل ان يصل اليه نبأ عن المرأة التي كانت شريكته في المؤامرة على السلطان وتقويض عرش بني عثمان

نديم اغا العاشق

لا يدهشك هذا العنوان ايها القارىء ، ولا تهز كتفيك وترسم على شفتيك ابتسامة السخرية ، فالاغا الذى أحدثك عنه كان عاشقاً ، بالرغم من أنه لم يكن غير نصف رجل !

شاءت الاقدار ان يولد ذلك المسكين تحت برج النحس وأن تعبس السعادة في وجهه وتوليه ظهرها ، وشاءت ارادة أسياد قساة غلاظ ان يحرم وهو في مهده من جرثومة الرجولية ومنبع النشاط . ولكن أيدهشك ان يكون لأولئك الحصيان المساكين عروق تنبض وقلوب تخفق وصدور تختلج بالغرام كغيرها من الصدور ؟

كان الخصى « نديم اغا » يخلص لمولاه الخدمة ويتفانى في سبيل مرضاه ، وبعبد بعد الله السلطان عبد الحميد الثانى ، ولي نعمته وصاحب الفضل عليه

وكان عبد الحميد يحبه ويخصه بعنايته ويوصى به خادمه ووصيفه جعفر آغا خيراً على الدوام

وكان كلما جلس الى المائدة ينادي نديم أغا ويعهد اليه بخدمته وتقديم الماء اليه

لكن الامر الذى كان الخصى يعدّه نعمة تفوق النعم جميعها ، وتعطفاً تضمحل امامه الخيرات والهدايا ، هو اعتماد السلطان عليه في حمل ارادته السنية كل ليلة الى دائرة الحرم ودعوة الحسناء التي يقع عليها اختيار عبد الحميد الى قضاء الليل في حجرة المولى !

وكان نديم اغا يقوم بتلك المهمة الدقيقة خير قيام دون ان تفارق

الابتسامة ثغره الافلج ، فتحيط به الجوارى والسراري كلما رأينه مقبلا: هذه تداعبه وتلك تدغدغه ، وهو يتنقل بينهن كالديك بين الدجاج .
لكنه ديك يفتقر الى اظهر مزايا الديوك فلا خطر منه عليهن !
وبالرغم من ذلك كله ، فان الديك المسكين « المهيض الجناح » كان عاشقاً مغرماً !

* * *

في احدى ليالي شتاء ١٨٩٧ وقع نظره للمرة الاولى على الفتاة « زبرجد » الغادة السوداء التي قادها الى قصر يلديز تاجر الرقيق « عثمان بك الكردى » فأنقد ثمنها مائة من القطع الذهبية الرنانة الصفراء !

لم تكن الجواري الزنجيات يساوين في ذلك الوقت ثمنا باهظاً كهذا ، إذ ان النخاس تاجر الرقيق افرام باشا كان يجلب منهن العشرات تلو العشرات . لكن تلك الجارية السوداء التي كانت تحمل اسما ينطبق على المسمى انطباقا محكما ، كانت في تقاطع وجهها وتناسب اعضاء جسمها ولمعان عينيها ونعومة بشرتها وامتشاق قامتها آية من آيات الجمال الكامل الجذاب ، فنالت حظوة في عيني عبد الحميد ،وامر خصيانه بأن يحلوها في حرمه محلا ممتازا ، وان يرعوها بعنايتهم دون سواها من النساء

شعر نديم اغا في بادىء الامر بنوع من الفخر عندما رأى تلك الزنجية ـ بنت جلدته ـ تعامل بين ساكنات الحرم من سود وبيض معاملة خاصة . فصار يعطف عليها ويسابق زملاءه فى خدمتها
لكن ذلك العطف ما لبث ان استحال غراما !

ان الحب يلج القلوب جميعها ،رفيعها ووضيعها ، ابيضها واسودها وعندما يشد اله الغرام نباله الى قوسه ويرشق بها الصدور ، فانه

لا يفرق بين الرجال ، ولا يميز بين الاسياد والعبيد ، والكاملين « والناقصين ! »

احب اذن نديم اغا الجارية السوداء وكاشفها بغرامه وجعل يبثها ماني اعماق فؤاده الجريح من لوعة وحسرة ، فقابلت الفتاة حبه بالمثل ، وقصت عليه قصتها وكيف ان النخاسين الجناة اغاروا برجالهم على عشيرتها ، هناك فى غابات زنجبار ، وساقوها سبية اسيرة ، بعد ان قتلوا اهلها ، وشتتوا شمل قبيلتها ، واحرقوا اكواخ قريتها

وجدت العبدة الذليلة في ذلك العبد الذليل اخاً في البؤس وشريكا فى الشقاء . وتوسمت فيه الامانة والاخلاص والحب الصادق . فاتخذته لها مؤتمنا ونجيا ، وتوثقت بين الاثنين العلاقات الى حد صار معه العاشق يغار على معشوقته من الجميع ، الرجال والنساء ، ومن سيده ومولاه السلطان نفسه !

دخل يوما على دائرة الحرم ونادى صديقته وقال لها بصوت متهدج والعبرات تخنقه :

— امرنى البادشاه أن ابلغك اليوم ارادته ، فهو يرغب اليك في أن تغتسلي بالطيب والعطور ، وان ترتدى ذلك الثوب الاخضر الذى امر لك بصنعه منذ ايام ، وتوافيه فى حجرته عند منتصف الليل

قال هذا والقى بنفسه على مقعد وجعل يبكي وينتحب

فدنت منه الفتاة وسألته مندهشة :

— وما الداعى الى هذه الدموع يانديم . ليست هذه المرة الاولى التى يدعونى السلطان فيها الى موافاته فى حجرته ؟

فنهض الآغا العاشق وقد صعد الدم الى رأسه ، وجذب معشوقته اليه بقسوة وعنف ، وضمها الى صدره ، ثم الصق شفتيه بشفتيها الملتهبتين بسعير الغرام ، وطبع على ذلك الثغر المحبوب قبلة حارة — احر من

اشعة الشمس اللذاعة في صحارى المجاهل الافريقية . ثم صاح بها وقد تغلب فيه الحيوان على الانسان :

— لن تذهبي الليلة اليه ! اوثر الف مرة ان يحل بي العقاب ، أن اجلد ، ان اسجن في غياهب الاقبية ، ان يلقى بي في الماء الى حيتان البوسفور وقد اثقل عنقي بالحديد والرصاص ، نعم اوثر ان يصعدوني إلى المشنقة ، ان يقتلوني شر قتلة ، على ان اتخيلك بعد اليوم في احضان رجل آخر ، يتمتع بجمالك ويعبث بجسدك !

ذعرت الفتاة وتولاها رعب شديد . فحاولت ان تهدىء من حدته وأن تطفىء نار ثورانه ، لكنها لم تفلح ، اذ أن العاشق المسكين كان أقرب الى المجنون منه الى العاقل !

انه يحب . لكن حبه مريض كسيح . يريد أن ينعم في حبه بما ينعم به الآخرون في حبهم . لكنه لا يستطيع . والطبيعة ترفض الاخذ بيده ، لكي يجتاز الطريق ويصل الى نهايته ، فيقطف ثمرة الغرام كبقية العاشقين

التفاحة أمامه ، على مقربة منه ، على متناول من يده ، يشم رائحتها ، يتلذذ بملامستها . . . ولا أسنان له تمكنه من التهامها

قام بينه وبين الجارية جدل عنيف : هي تريد ان تصدع لارادة المولى وهو يحضها على العصيان

وجاءت النساء على صوت الضوضاء ، وأقبل أحد رفاق نديم يستفسر ما الخبر

ووقعت الفضيحة التي طالما سعت الفتاة زبرجد الى اجتنابها

أدرك الخصي الآخر ان في الامر سرا ، وان في استغلال الموقف منفعة وفائدة . فوجه الى الباب عازما على الخروج لحمل الخبر الى مولاه السلطان

لـكن الجارية فطنت الى حيلته ، فأسرعت اليه وارادت أن تحول بينه وبين الباب . فاعتقد نديم اغا انها تغتنم الفرصة للهرب منه والذهاب الى حيث تدعوها الارادة السنية ، فتناول مسدسه واطلق منه رصاصة على معشوقته

لـكن يده المرتجفة أخطأت المرمى . فسقط الزنجي الآخر صريعاً وقد اخترقت الرصاصة صدره وأصابت منه مقتلا

وعلا الصياح والعويل ، فأفاق نديم آغا من سكرة هياجه واتضحت له حقيقة موقفه وفظاعة عمله

وأدرك أنه هالك لا محالة !

* * *

كان السلطان عبـد الحميد قد نزع عنه ثوبه الاسود ولبس قميصه الأبيض وجلس في سريره ، وجعل يصـغى الى قراءة التقارير التى جاء يطلعه عليها رئيس الجواسيس ، وتحت وسادته زجاجة يستنشق منها من آن الى آخر

الاصغاء الى التقارير ، واستنشاق المنبهات : هذا ما كان يصنعه عبد الحميد في انتظار الحسناء التى اختارها لـكى تحمل شعاعاً الى حجرته المظلمة ، وتريه ثغراً باسماً بعد أن رأى طول نهاره وجوها عابسة !

— أعد قراءة هذه الجملة

فأطاع رئيس الجواسيس وأعاد القراءة :

« دخلنا على احمد بك . . . فوجدناه جالساً يداعب قطته وبجانبه زوجته تضاحكه . فأطلقنا عليه رصاصتين . . . »

لـكن الرجل توقف فجأة عن القراءة ونهض مذعوراً . ذلك لأن البـاب قد فتح بشدة ، ودخل الحجرة مارد أسود وهو يصيح والمسدس بيده :

— مر بقتلى يا مولاى فقد خنتك وأذنبت !

وخر الرجل على وجهه وتناول حذاء السلطان وجعل يقبله ويردد:

— مر بقتلى يا مولاي . . . مر بقتلي . ! .

لـكن مولاه كان قد اختفى !

ضغط عبد الحميد على زر وراء سريره ، ففتح باب سري وخرج منه سلطان البرين وخاقان البحرين ، مرتعشاً هارباً من وجه ذلك الزنجي الذى اقتحم حجرة نومه شاهراً مسدسه !

* * *

قبض على الآغا العاشق . وأصدر المفتى فتواه بوجوب قتله فعلقوه على المشنقة في احد الميادين العامة

وفي اليوم التالى ، أمر السلطان باستجواب النسـاء للاطلاع على دخائل ذلك السر ومعرفة حقيقة ما جرى في دائرة الحرم وكيف قتل نديم آغا زميله . . .

لـكنهم لم يجدوا في غرفة الفتاة غير جثة هامدة

لم تذق المسكينة لذة الغرام في هذا العالم ، ولم تشأ أن يفرق الموت بينها و بين حبيبها التعس، فشنقت نفسها فى غرفتها . و لحقت به الى العالم الآخر ، حيث التفت الروحان بعيداً عن أعين المزاحمين والحساد !

بهرام اغا الجعفرى

كان يقيم فى مصر ، سنة ١٩٢٥ ، رجل شركسى يدعى محمد سليمان أغا ـ ولست أدري من أين ولا كيف أتى بلقب «أغا» هذا . وكنت أعرف الرجل معرفة جيدة ، وأجلس معه طويلا ، أصغى الى ما كان يقصه عليّ من حوادث الاستانة وأسرار القصور ، لأنه قضى في عاصمة السلطنة العثمانية القديمة مدة طويلة

وحدث أن التقيت به ذات يوم ، فألفيته فرحاً ضاحكا ، يطفح البشر من وجهه . ودعاني الى الجلوس فجلست معه في أحد مقاهى القاهرة ، حيث ابتدرنى قائلا :

ــ ان هذا اليوم من الأيام السعيدة في حياتى ، وسأشرب اليوم نخب الأقدار التى تنتقم المظلومين دون علمهم

أثار كلام الرجل رغبتي في الاستزادة من الحديث فسألته :

ــ وما الذي يجعل هذا اليوم سعيداً بين الايام ، ويحملك على أن تشرب نخب الأقدار وعهدى بها عمياء لا تبصر ، وصماء لا تسمع ، ولا تخدم أحداً من الناس أو تسيء اليه عن حكمة وتعقل ؟

ــ أنت مخطيء ! فالأقدار تسير شؤون العالم وتسيطر عليها ، والبرهان على ذلك أن « بهرام اغا » قد مات خنقاً !

فرأرأت عيني وحملقت فيه سائلا من جديد :

ــ ومن هو المرحوم بهرام اغا الذى مات خنقاً ؟

ــ بهرام اغا الجعفرى . ألم تسمع باسمه ؟

ــ مطلقاً

— أنت إذن لا تعرف شيئاً من حوادث يلدز ، في عهد السلطان عبد الحميد

— أنا أجهل تلك الحوادث جهلا مطبقاً . فقص عليّ قصة بهرام أغا ، جزاك الله كل خير

فقص عليّ محمد سليمان اغا الشركسي القصة الآتية قال :

— كانت تتولى ادارة الحرم السلطاني هيئة من الاغوات اسمها دائرة «أغوات دار السعادة» أسسها السلطان العظيم سليمان القانوني . وكان رئيس أولئك الأغوات يحمل لقب « بيوك اغا » ومعناه « الاغا الاكبر » ومركزه بين رجال القصر رفيع جداً ، إذ أنه يجيء بعد الصدر الاعظم وشيخ الاسلام

« وكان « بيوك اغا » في عهد السلطان عبد الحميد ، وفي الوقت الذي وقعت فيه حوادث هذه القصة ، يدعى بهرام اغا الجعفري

«ويجدربي أن أنبهك هنا الى أن بهرام اغا هذا كان رئيس أغوات الاميرة جميلة سلطان ، أخت عبد الحميد ، وكانت تحبه وتثق به ، وهي التي طلبت إلى أخيها السلطان أن يعينه « بيوك أغا » فأجابها الى طلبها ورفع بهرام الجعفري الى ذلك المقام الرفيع . فصار الاغا اللعين ، وهو ماكر دساس متزلف ، يتمتع بنفوذ هائل لا يضارعه في القصر السلطاني نفوذ . وأصبح رضا السلطان موقوفا على رضاه . وجعل أصحاب الغايات وأرباب المصالح يقصدون الى ذلك الخصي الاسود لقضاء مصالحهم وغاياتهم . ورأى المقربون من القصر ذلك الرجل «الناقص» يسير أحياناً شؤون السلطنة حسب رغباته وأهوائه ، يعزل من هذا المنصب من يريد ، ويعين في تلك الوظيفة من يشاء . . .

« واتسع سلطانه الى حد أن السلطان نفسه أوجس خيفة وداخله الحسد منه . فكاشف أخته بالامر ، وأفضى اليها برغبته في نقل بهرام

اغا من تلك الوظيفة الى أخرى أقل منها شأنا . فأوعزت اليه بأن يضع الاغا على رأس دائرة الحرم السلطانى ، لكي يدير حركة التجسس على النساء ، ويراقب سلوكهن وحركاتهن وسكناتهن

« ومنذ ذلك الوقت ، جعل بهرام اغا يرفع الى مولاه التقارير اليومية عن كل صغيرة وكبيرة تجرى في داخل « الحرملك » ، ليس فقط في قصور السلطان ، بل أيضاً في قصور أمراء الاسرة المالكة جميعاً ، وذلك بواسطة رؤساء الاغوات ، الذين كان يغدق عليهم بهرام النعم والعطايا ، مقابل ان يوافوه باسرار القصور . »

* * *

وهنا سكت محدثى . وخيل الىّ أن افكاره تاهت في عالم آخر ، ولكن صبري مالبث أن نفد ، فصحت به :

— لقد حدثتني عن السلطان وحرم السلطان واغوات السلطان ، ولكنني لم ادر بعد علاقتك بذلك كله ولا أي شأن لك برئيس اغوات القصر ، الذى تدعوه بهرام اغا

فمر محمد سليمان بيده على جبينه ، وافرغ في فمه قدحاً من الماء المثلوج واستطرد قائلا :

— كان لى أخت تدعى بهيجة ، بارعة الجمال ، فاتكة اللحظ ، طويلة القامة

« وتلك الأخت التى كنت أحبها حباً جماً ، اختفت ذات يوم من البيت ، وعبثاً بحثنا عنها الشهور الطوال

« وأخيراً علمنا أنها تقيم في قصر السلطان ، وأن زبانيته قد اختطفوها من احدى الحدائق العامة بارشاد بهرام اغا اللعين

« أختى ، الحرة الطاهرة ، تصبح بين مساء وصباح جارية في القصر السلطانى ، يعبث بعفافها ذلك النمر البشرى !

« اختى تسرق من خدرها ولا سبيل الى الاقتصاص من السارق

« هجر الرقاد جفنى منذ ذلك الوقت ، وحرمت على نفسى الراحة ما لم أنقذ أختى المسكينة من ذلك الجحيم ، وأعيدها الى الهواء الطلق ، الى الحياة الحرة ، ولو ملطخة بما لحقها من عار في تلك البؤرة التى يسمونها الحرم السلطانى

« وبلغت مقصدى ومرامى بعد جهد وعناء . .

« ولست في حاجة الى أن أفضى اليك بالتفاصيل

« يكفيك ان تعلم انني تمكنت بمساعدة الاغوات وبفضل ما بذلته من مال ، من اخراج أختى بهيجة من قصر السلطان . . . الى قصر أخيه محمد رشاد

« أدركت في بادىء الامر أنهم سيبحثون عنها في بيتنا ، فأردت ان اضلل الباحثين بأن اترك اختى الهاربة تختبىء فى ملجأ أمين

« وأي ملجأ اكثر امانا لها من قصر محمد رشاد ؟

« لكن المسكينة اخرجت من حبسها ... لكى تقذف بها الاقدار الى حتفها وتواريها في قبرها

« فقد بلغ السلطان خبر فرارها ، فعهد الى بهرام اغا رئيس الاغوات فى أن يبحث عن المرأة التي يعود اليه الفضل في جلبها الى القصر ، ويعيدها اليه حية أو ميتة . والا انزل به العقاب الشديد !

« خاف الاغا على حياته ، وأطلق ثعالبه وصنائعه وعبيده في أثر الطريدة الشاردة

« ولم يمض على ذلك اليوم اسبوع واحد حتى كان أمر بهيجة قد انفضح وسرها قد انكشف

« اعيدت بهيجة الى قصر السلطان وقادها بهرام الى القاعة المعروفة بحمام السلاطين

« وذلك الحمام شيده السلطان سليمان القانوني من المرمر الايطالى الابيض والوردي ، وكان الجالسون على عرش ا ل عثمان يختلفون اليه للاستحمام بين السراري والجوار منشدات راقصات

« هناك وافاها السلطان ابن السلطان ، السلطان الغازي عبد الحميد الثاني خان ، الذي غادر قاعة الاستقبال ومنصة العرش ، وجاء الى ذلك الحمام لكي يرى بعينيه مقتل امرأة اراد استعبادها فتمردت على ارادته

« هناك ، امام ذلك الر .ل الغريب الاطوار انقض العبيد على بهيجة الضعيفة وأخمدوا انفاسها خنقا باصابعهم الغليظة وتركوها بين يدى سيدهم ومولاهم جثة هامدة ! »

* * *

سكت محمد سليمان اغا من جديد . فعمدت الى سؤاله :

— وبهرام اغا ؟

— لقد مات منذ أيام . . مات خنقاً كما ماتت اختي خنقا !

— ومن قتله ؟

— جارية فرت من قصر السلطان منذ سنوات وظلت حاقدة على ذلك الاغا لما لقيته منه من عذاب وارهاق . وقد انتقمت الآن لنفسها ولاخواتها من نساء القصر . لذلك تراني اليوم فرحا ضاحكا : لقد مات رام اغا . والقاتل يقتل !

هذا ما قصه علي محمد سليمان اغا الشركسي . وقد رأيت ان هذا الحادث من خفايا القصور التي تستحق ان تذاع فأذعته

زنجان هانم

قال محدثي :

— انك شديد الولع على مايظهر بحوادث التاريخ الخفية وبالوقائع التي كانت ولا تزال تجرى وراء جدران القصور ، والتى اراك تتناولها من وقت الى آخر فتضعها في قالب قصصي . فهل تريد أن اقص عليك حادثا وقع لامرأة بارعة الجمال مع صاحب السمو الخديو السابق عباس حلمي باشا ؟

فقلت :

— كيف لا أريد ذلك وأسرار القصور لا تزال الى الآن تغريني بموضوعاتها الشائقة ؟ فمن تكون زنجان هانم وماذا حدث لها مع سمو الخديو السابق ؟

فقص على محدثي ، وهو من الذين نسميهم « المطلعين على دخائل الأمور » ومن رجال العهد العثماني البائد ، القصة الآتية أنقلها الى القارىء كما سمعتها منه :

* * *

« بين الشخصيات التى ظلت حقيقة أمرها سراً مبهما،شخصية زنجان هانم التي أحدثك عنها اليوم . ويجب أن أقول لك قبل كل شيء إن زنجان هانم في نظري جاسوسة خدعت الخديو السابق عباس حلمى باشا كما خدعت سواه من الناس ، وإنها كانت تعمل لحساب الجميع على السواء . وكل ما أعرفه عن أصلها ونشأتها أنها ابنة رجل جمعته أيام المدرسة بدرويش باشا أحد القواد الاتراك . وكان درويش باشا من

أسرة كردية، معروفاً بين الناس باخلاقه الغليظة . وقد شاءت المصادفات أن يكون والد زنجهان هانم رفيقه في الحروب ، فأصيب الرجل برصاصة في إحدى معارك « القرم » وقبل أن يلفظ نفسه الاخير ، أرسل في طلب درويش باشا وأوصاه بابنته خيراً ، لانها ستصبح يتيمة بعد وفاة أبيها ، وكانت أمها قد ماتت قبل ذلك اليوم باربعة أعوام . فاستولى درويش باشا على أموال الفتاة وما تركه لها والدها الغني من عقارات وأملاك شاسعة ، وانتهى الامر بأن رغب فيها زوجة له

« هال الفتاة ما يطلبه منها ذلك الشيخ الهرم المتداعى الذي أصبح على حافة القبر ، بينما هي ترتع في ربيع عمرها ، وتستقبل الحياة بثغرها الباسم وجسمها البض . ولكنها اضطرت الى الاذعان ضناً بثروتها ، وخوفاً من أن يتصرف درويش باشا قبل موته بما تركه والدها . وقالت في نفسها ان الوسيلة الوحيدة لانقاذ تلك الثروة هي قبول ما يطلبه ذلك الشيخ الفاني . وبعد أيام أصبحت الفتاة الجميلة الحسناء زوجة لذلك القرد البشري

« ولو أراد المؤرخون أن يبحثوا في زوايا التاريخ ويستطلعوا أسرار القصور لكي يدونوا في سجلاتهم أغرب ما حدث لزوجة في « ليلة الدخلة » لكان دخول درويش باشا بالفتاة زنجهان هانم أغرب ما يدونون ! ولكنني لا أطيل الشرح في هذا الموضوع لان تدوينه قد يعد في نظر البعض من « الادب المكشوف » المبالغ فيه . فلنمر على ليلة الدخلة مر الكرام . ولكن يجب أن تعلم أن زنجمان هانم بقيت في قصر درويش باشا فتاة عذراء بعد زواجها ، كما كانت من قبل

« ومات درويش باشا ، ولا اذكر لك كيف مات لان الاشاعات حول موته كثيرة متباينة متناقضة . ويقولون ان لزنجمان هانم يداً في موت الرجل. ولكن دعنا أيضاً مما يقولون فان الالسنة طويلة في كل بلد

من بلدان الله ، وسيبقى موت درويش باشا زوج زنجمان هانم سراً من أسرار القصور

«ولعلك تتوق الآن الى معرفة علاقة صاحب السمو الخديو السابق عباس حلمى باشا بزنجمان هانم الجميلة الفاتنة ، بعد وفاة درويش باشا زوجها . فاعلم اذن أن الذى كان همزة وصل بين المرأة والخديو وواسطة تعارف بينهما ، هو مصطفى الحصرى من أصدقاء سموه ومن الذين كانوا يعملون لحسابه في الاستانة ، في عهد المرحوم السلطان عبد الحميد الثاني

« قامت في مصر في وقت من الاوقات ضجة هائلة حول الاوقاف والمحاكم الشرعية ، عند ما كان اللورد كرومر معتمداً لدولة بريطانيا العظمى في مصر . ورفعت الى السلطان شكايات موجهة ضد الخديو ، وذهب الناس في شكاياتهم الى الادعاء بأن سموه يتصرف في أموال الاوقاف حسب أهوائه وأغراضه . فأراد السلطان أن يعرف الحقيقة من منبعها كما يقولون ، وطلب من سمو الخديو عباس حلمى أن يبسط له الامر كما هو . وسافر الخديو الى الاستانة لهذا الغرض . وهناك اتصل بمصطفى الحصرى ورغب اليه في أن يطلعه على حركات خصومه من المصريين والاتراك ، فما كان من الحصرى إلا أن أسرع في طلب زنجمان هانم ، وكان الخديو قد عهد اليها من قبل في مراقبة أولئك الخصوم وموافاته باخبارهم

« وضرب الخديو موعداً لمقابلة المرأة في قصر بيك في الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم شديد الحر . فمثلت المرأة بين يديه وأطلعته على ما دار في الخفاء بين السلطان وأبي الهدى الصيادى ، وبين هذا الاخير وخصوم الخديو من المصريين . ومما قالته له إن السلطان عبد الحميد علم باجتماع الخديو بالسيد جمال الدين الافغاني والسيد

عبد الله نديم ،في محل يدعى « الكاغدخانة » فاستاء من ذلك وأرسل في طلب أبي الهدى وعهد اليه في مراقبة الثلاثة معاً . فاغتنم أبو الهدى الفرصة السانحة واطلع السلطان على ما قاله له السيد محمد توفيق البكري عن تدخل الخديو في شؤون الاوقاف ، وغير ذلك مما يسيء الى سمعة سموه ويحط من قدره في عين السلطان

« وطفقت زنجمان هانم تتحدث الى الخديو وتسرد له التفاصيل عن حوادث كان يجهلها . وما مضت على دخولها عليه في تلك القاعة في قصر بيك ساعة واحدة حتى كان الخديو عالما بجميع الاسرار والحركات الخفية الموجهة ضده . فنهض من مكانه وفتح درج مكتبه وتناول منه هدية ثمينة قدمها بيده لتلك المرأة التي أسدت اليه خدمة لا اشك في أنه يذكرها الى الآن ا

«وفي اليوم التالي ، حظي الخديو بمقابلة السلطان عبد الحميد وعرف كيف يبسط قضيته على مسامعه ، فخرج من لدنه غانماً فائزاً حائزاً رضاه

« واذا كان السلطان عبد الحميد قد تدخل في مصلحة الخديو ودافع عنه ، فذلك عائد الى براعة زنجمان هانم وتجسسها للخديو حيناً وعليه أحياناً ، والى النعم التيأغدقها عليها ، وخصوصا الى ما كان يجري وراء جدران قصرها في الاستانة . فان ذلك القصر الذي كانت زنجمان هانم تسكن فيه ، والذى فاضت فيه أنفاس زوجها العجوز درويش باشا الكردي ، كان مسرحا بعد موت الرجل للمقابلات وحادثات ومغازلات ودسائس ومكائد لا تعد ولا تحصى ، وسوف تظل سراً من الاسرار وما اكثرها في ذلك العهد المملوء بالخيانات والاعمال الخفية المبهمة »

ابن الشركسية

في قصر « اورته كوي » بالاستانة العلية . . .

خرج السلطان وحيد الدين الى شرفة تطل على الحدائق الغناء ، وتنفس الصعداء بعد أن ضاقت أنفاسه في داخل ذلك القصر الذي استحال سجناً ممقوتاً

١٩٢٣ . . .

الوطنيون الاتراك يبتسم لهم الدهر عن ثغره ، وتنعقد فوق رءوسهم ألوية النصر ، ويكتسحون بعبادئهم البلاد بعد أن طهروا أرضها من الاجنبي الغاصب

والسلطان قلق مضطرب تساوره الهواجس وتكتنفه الهموم

يخاف على حياته المهددة

ويخاف على السلطنة أن تفلت منه

لقد جاهر رعيته بالعداء ، ونصر الغريب على أبناء قومه ، وكان سلاحا للاجنبي على الاحرار المجاهدين والابطال المحاربين ، الذين أبت نفوسهم الضيم فامتشقوا الحسام وأقسموا ألا يعيدوه الى غمده الا اذا عادت الى تركيا حريتها وحقوقها

وحيد الدين يمثل الرجعية والخمول والقنوط والاستسلام

ومصطفى كمال يمثل النهضة والحزم والامل والاباء

جلس السلطان وقد شعر بأن عرشه يتهدم ، واخذ رأسه بين يديه وأطلق العنان لافكاره تسبح في عالم المخاوف والاحلام المزعجة

وبينما هو على هذه الحال اذا بصوت رخيم يطرق اذنه ، بل يداعبها

كالنسيم . فرفع السلطان رأسه مجفلا وقال :

ــ من هنا ؟

ــ أنا يامولاي . رأيتك وحيداً حزينا كئيبا فجئت اطرح نفسي على قدميك وابعث في نفسك ــ اذا استطعت ــ بارقة امل ورجاء

فبسط السلطان يده للمرأة الواقفة امامه ، وأخذ رأسها بين يديه وطبع علي جبينها قبلة ممزوجة بالعبرات

هي « اقبال » الشركسية . او بالحري « اقبال » التي تدعى انها شركسية ولكنها في الحقيقة يونانية من بنات الجبال ، قادها احد تجار الرقيق الى قصور السلاطين ، وادخلت كغيرها في حرم محمد السادس وظلت تقيم فيه ، فشاهدت الانقلابات التي توالت على تركيا ، وعطفت على وحيد الدين الذي نبذه الجميع ما عداها واضمروا له الشر بينما كانت وما تزال تضمر له الخير

ذلك لانه انقذ ولدها من الموت

كان ذلك الولد في الثامنة من عمره . وحدث ذات يوم ان فاجأ السلطان احد ضباط الحرس يعتدي عليه فيضربه الولد بقبضة يده ويقبض الضابط على عنقه ويهم بخنقه لو لم يفاجئه وحيد الدين وينقذ الفريسة من ايدي الجلاد

وكان جميع من في القصر يعتقدون ان ذلك الولد ابن عامل من عمال الحدائق ويجهلون انتسابه الى اقبال الشركسية

لكنها افشت الحقيقة للسلطان بعد ان انقذ ولدها. غير انها لم تبح له الا بما ارادت ان تبوح به

فأخذها تحت رعايته وصارت منذ ذلك الوقت تلازمه وتتفانى في خدمته

واحبها وحيد الدين . فكانت شعاعا يضيء ظلام وحدته وعزلته

* * *

جاءته ذلك اليوم وهي على غير عادتها قلقة مضطربة . ففطن السلطان الى ذلك وطلب منها ان تبوح له بمكنونات صدرها وان تطلعه على ما أخفت من اسرار حياتها . فقالت اقبال :

— ما جئت اليك الآن يا مولاي إلا لكي ابوح لك بكل شيء . ولكن على شرط واحد لابد من اجابتي اليه . اتعدني بذلك ؟

— اجل اعدك

— وهذا الشرط هو ان تدعني ارحل وولدي عن الاستانة ولن يسمع احد شيئا عنا بعداليوم

فانتفض وحيد الدين وقال :

— تريدين ان ترحلي وانت الشخص الوحيد الذي ارتاح الى مجالسته في هذا القصر حيث يحيط بي الاعداء من كل جانب ؟

— لا بد من ذلك يا مولاى : اسمع قصتي واحكم

وبعد سكوت قصير مسحت فيه اقبال دمعة ترقرقت فى عينيها واستعادت فيه تذكارات ماضية مؤلمة،جعلت تقص على السلطان مأساة حياتها . قالت :

— لا أطيل عليك الشرح فأسرد لك التفاصيل عن نشأتي في بلاد اليونان — اي في بلادى . لكننى أكتفي باطلاعك على ما حدث لى بعد ان وقع علي اختيار السلطان محمد السادس ، لكى اكون بين نسائه المخيرات

«انك أدرى مني بعادات القصور وتقاليد آل عثمان . فقد حرّم على نساء الحريم ان يلدن ابناء الا اذا كن يحملن لقب سلطانات القصر . ولم اكن احمل ذلك اللقب لان عدد من تخولهن التقاليد حمله كان مستوفيا

حدث مرة ان اقيمت في هـذا القصر ـ قصر اورته كوى ـ مأدبة فاخرة دعى اليهـا عدد عظيم من النـاس ودعيت الى الرقص والغناء . فلبيت الامر ورقصت وغنيت

« وفي تلك المأدبة علم السلطان محمـد السادس ان الحرب العظمى قد اندلعت نيرانها بين الدول اذ انه كان يجهل كل ما يجري خارج قصره

« وبعـد انصراف المدعوين استبقاني السلطان وقضيت ليلتي في مخدعه وكان ثملا

« ومرت الايام والاسابيع والشهور . وكنت قـد شعرت بانني حامل وخفت على الجنين ان تناله يد الاذى فأخفيت الامر عن الجميع

« لكن التستر كان صعبا . فاضطررت في النهاية ان ابوح بسرى ، واصدر السلطان امره بأن يقتل المولود في الحال

« ذعرت لتلك الارادة . وجعلت افـكر في طريقـة انقذ بهـا الطفل المسكين البرىء . فاتفقت مع القابلة التي جاءت من المدينة بطفل ميت احلته محل ولدي ، وحملت ولدى الى مكان امين اخفيته فيه

« وظل السلطان معتقداً ان الطفل قد مات

« اما انا فكنت ارى ولدى سراً في بادىء الامر عند البستاني الذي عهدنا اليه في تربيته والسهر عليـه ، حتى بلغ الثالثة من عمره . فادعى البستاني انه ولده وصرت أراه جهراً وبلا خوف

« فذلك الصبي يا مولاى الذي انقذته القابلة من الهلاك منذ ثمانية اعوام ، والذى انقذته انت من يد الضابط الذي اراد به سوءاً منذ بضعة أشهر ، هو ابن السلطان محمد السادس ، وفي عروقه تجري دماء بنى عثمان. واذا كنت ارجو منك ان تدعني ارحل بولدى فليس ذلك لانني ارغب فى الحرية ، فسيان عندي البقاء او الرحيل ، بل من اجل الولد

أطلب ذلك لكي انقذ من الهلاك اميراً عثمانيا مجهولا ! »

* * *

سكتت المرأة بعد أن قصت على السلطان قصتها . فأشفق وحيد الدين عليها وقال بصوت متهدج :

— اقبال ، انني أشعر بدنو أجل السلطنة ، فانقاذ أمير من أمراء الاسرة المالكة واجب محتم . كان السلطان بالامس يفتك بافراد أسرته لكي يأمن شرهم . أما اليوم فقد تغيرت الاحوال وتبدلت الظروف : سترحلين بولدك يا اقبال

* * *

وفي اليوم التالى ، غادرت اقبال الشركسية قصر « أورته كوى » ورحلت عن الاستانة بجواز سفر مزور يحمل اسم « مدام ايفانيا كريستو دولو وابنها الفتريس »

وبعد أسبوع واحد خلع مصطفى كمال السلطان وحيد الدين وأجلس الامير عبد المجيد على عرش آل عثمان المتزعزع

ثم كان ما كان من الغاء الخلافة والسلطنة وطرد عبد المجيد وقيام الجمهورية على أنقاض الماضي

* * *

وفي شهر مايو سنة ١٩٢٦ ورد على الخليفة عبد المجيد المنفى كتاب من روسيا ففضه وقرأ فيه :

« مات الامير سليم ابن السلطان محمد السادس قبل أن يبلغ الحادية عشرة من عمره « والدته الحزينة »

ولم يعلم أحد ماذا حل باقبال الشركسية

الراهب العاشق

[قرر الكولونيل فولكولسكي الروسي ، ياور القيصر السابق ، أن يدخل الدير في احدى الرهبانيات بروما]

« الجرائد »

أفضى الكولونيل فولكونسكي برسالته السرية الى القيادة العامة ، وحمل منها الرد الى مجلس الدوما في « بتروغراد » فغادر ميدان القتال وأسرع ينهب بمركبته المراحل نهباً ، ولم يهدأ باله ويذق طعم الراحة إلا بعد ما اجتاز السور المحيط بقصره ، هناك ، على شاطىء النهر في احدى ضواحي العاصمة الروسية

كانت الحرب العظمى في أشد أطوارها خطورة . وكانت الجيوش الألمانية الجرارة تتدفق على حدود الروسيا كالسيول الجارفة ، وقد ارتدت أمامها فرسان القوزاق واضطر جنود القيصر الى حفر الخنادق أسوة بحلفائهم الفرنسيين والانكليز

وكان الكولونيل فولكولسكي من الضباط الروسيين البارزين ، شهد له الأعداء انفسهم بالحنكة والشجاعة ، وكان القيصر نقولا الثاني يخاف عليه من بأسه واقدامه ، فاحتفظ به بعيداً عن خطوط النار ، وألحقه بخدمته واتخذه ياوراً خاصاً يرافقه في روحاته وغدواته

وعندما كان مجلس الدوما يرغب في مخابرة القيادة العامة سرا ، كان القيصر يطلب اليه أن يعهد في هذه المهمة الى ياوره المخلص الأمين لكي يثق من قضائها على خير ما يرجى

وكان الكولونيل عند حسن الظن به

أما اختياره ياورا للقيصر ، فقد جاء طبق مرامه ، وموافقاً لرغبته ،

اذ أنه كان يحب ، والمرأة التى كان يحبها لم تكن غريبة عن القصر

نشأ فولـكونسكى في كنف أبيه الشريف النبيل ، واختلط من صغره بالاسرة المالـكة ، فكان من أبناء الاشراف المدللين المختارين ، الذين يسمح لهم بأن يشاركوا أبناء القيصر في العابهم

وتولدت بينه وبين احدي بنـات العاهل الروسى ـ الغراندوقة أناستازيا ـ منذ الطفولة ، صداقة متينة نمت بنمو الصديقين ، وتوثقت عراها بنضج عقليهما وحواسها ، وما أقبلت سن الشباب حتى كانت تلك الصداقة قد استحالت حباً قوياً عميقاً ، تملك منهما المشاعر واحتل الفؤادين

وفطن القيصر الى ذلك الغرام الناشىء ، لـكنه لم ير فيه غضـاضة ولا ضيما ، فغض عنه الطرف وتركه حراً طليقا

أما القيصرة ، فانها لم تنظر اليه بعين الرضا والقبول ، لانها كانت تعد لابنتها اناستازيا زواجا غير هذا ، ولأن الداهية «راسبوتين» كان قد رسم لذلك الزواج خطة أخرى

وما يريده راسبوتين لا تعارض فيه القيصرة !

ونشأ بسبب ذلك الحب البريء الطاهر خلاف عنيف بين القيصر والقيصرة ، جعل الراهب المخيف يذكي سـعيره لغاية في نفسه ـ وما اكثر الغايات في نفس ذلك الشيطان !

لـكن فولـكونسكي لم يأبه لمعارضة القيصرة وصديقها راسبوتين ، لانه كان واثقا من عطف القيصر ، وواثقا على الخصوص ـ وهنا بيت القصيد ـ من اخلاص محبوبته وتعلقها به

وفي ذلك اليوم الذي عاد فيه من ميدان القتال الى عاصـمة الامبراطورية ، أسرع العاشق الى القصر ، ووضع على جبين الأميرة

الجميلة قبلة أفرغ فيها ما تجمع في صدره مدة أسبوعين من شوق ولوعة !

* * *

وكان في القصر عاشق آخر ، عاشق هادىء ساكن ، عاشق صامت يكتم حبه في قلبه ويكظم عواطفه في صدره ، ويخشى أن تخونه الظواهر ، فيطفو على جبينه وفي عينيه وعلى شفتيه بعض ما يختلج بين جوانحه من عواطف هائجة متلاطمة

ذلك العاشق الخائف المرتعش هو « جاكوبوفسكي » اللازم البسيط ، الذى عهد اليه في مراقبة خدم الاسطبل ، وألحق بخدمة الاميرة أناستازيا . يسهر على جوادها الخاص ويعتنى به ، لان ابنة القيصر كانت شغوفة بركوب الخيل حاملة قصب السبق بين النساء الفارسات

جاكوبوفسكي « السايس » يحب الاميرة الشريفة !

وأية غرابة في ذلك ؟ أما دونت التواريخ فى صفحاتها حوادث حب ووقائع غرام ، كان أبطالها خليطا من أبناء القصور وأبناء الاكواخ ؟

رحل جاكوبوفسكي الى الروسيا قبيل الحرب العظمى ، سنة ١٩١٣ وهناك سدت أبواب العودة في وجهه . فاضطر الى البقاء فى تلك البلاد الواسعة الشاسعة ، حيث يجد أصحاب الهمم دائما عملا يرتزقون منه

وجاكوبوفسكي من طائفة عرف أبناؤها بالنشاط في الاعمال ، واقتناص المال حيث كان

هو ابن « يعقوب كوهين » تاجر الخيول الذى كان منذ اربعين سنة خلت مسيطرا على أسواق الشرق من بورسعيد الى حيفا الى بيروت الى حلب الى ازمير وما وراءها

أما جنسيته ، أما وطنه ، أما مسقط رأسه ، فسر من الاسرار

كان يعقوب كوهين يهوديا بكل ما في هذه الكلمة من المعاني الظاهرة والباطنة . وقد بث في ولده تلك الروح التى تميز أبناء اسرائيل عن سواهم من البشر . فنشأ الابن على صورة أبيه ، يهوديا اصيلا لا وطن له غير الارض التى ينزل فيها ، والتى يجد فيها الدرهم الذى وقف حياته للبحث عنه

مات الوالد فخلفه الولد في الاسواق . لكنه انتقل الى ميدان غير الذى جال فيه ابوه وصال . فجعل يروح ويجيء بين الروسيا والشرق الاقصى ، الى أن فاجأته الحرب وهو في بتروغراد ، فانتحل لنفسه اسم « جاكوبوفسكى » وفضل الاقامة في قصر الامبراطور ، يخدم خيول الاميرة أناستازيا ، على التعرض لاخطار الحرب واهوالها

أما دخوله القصر ووصوله الى الرتبة التي أنعم بها عليه فسر من الاسرار أيضا !

***

ولا يدهشنك أن يلج الحب قلوب أولئك الذين لا يحبون غير المال ، فهو جبار لا يقف في طريقه حائل . واذا ما غزا قلبا قضى فيه على كل خصم مهما يكن عنيدا وأرغمه على الجلاء

دخل جاكوبوفسكى إذن فى خدمة الاميرة الروسية . فأحب بادىء الامر جيادها . ثم انتقل حبه اليها فهام بها هياما أفقده الصواب

ظل مدة طويلة كتوما لا يبوح بسره ولا يجرؤ على مكاشفة معبودته بحبه . لكنه ذات يوم أقدم على ما يقدم عليه المجانين ـ والحب يقرب أحيانا من الجنون ـ فانطرح على قدمي أميرته الحسناء ، وطفق يبثها وجده وغرامه ، ويفضي اليها بما يقاسيه من عذاب اليم ، ويتوسل اليها أن تشفق عليه وترمقه بنظرة من عينيها الساحرتين

ولم يعده إلى رشده غير قهقهة تجاوبت أصداؤها في أرجاء القاعة .

فانتفض العاشق مذعورا ، واذا به أمام خصمه في الغرام الكولونيل فولكونسكي الذى أرسل في الفضاء تلك القهقهة الساخرة

أما الاميرة فكانت قد استلقت على مقعدها ضاحكة أيضا ، وقد عقلت الدهشة لسانها !

وقف جاكوبوفسكى في مكانه حيران كالمجرم الذى يفاجأ متلبسا بجريمته

فتقدم الكولونيل ورفع يده ولفح وجه « السايس » الجرىء بسوطه فسالت منه الدماء

ومرت بعد ذلك أيام وشهور واعوام ملأى بالحوادث والدماء

* * *

يوليه ١٩٢٩

حمل البريد الى الكولونيل فولكونسكي خطابا فضه وقرأ فيه ما يلى :

« يا حضرة الكولونيل

« بلغنى انك ما زلت تعلل النفس برؤية الأميرة أناستازيا ، التى يدعى البعض انها لا تزال على قيد الحياة . فجئت برسالتي هذه أطلعك على أمور تجهلها : لقد ماتت الاميرة التي كنت تحبها موتاً لا شك فيه. واليد التي تخط هذه السطور هي التي أطلقت عليها الرصاص الذى مزق صدرها المرمرى . وقد هاجت شجوني عند ما رأيتها أمامي جثة هامدة ، فشبهت ذلك الصدر والدماء متجمدة عليه بصفحة السماء وقد رصعتها النجوم في الليل . ولقد ضحك الرفاق كثيراً لهذا التشبيه البديع. لا تحمل نفسك اذن عناء البحث والسؤال . لم ينج احد من مجزرة اوكاتنبورج ، التي أعدم فيها أفراد أسرة القيصر دفعة واحدة في نوفمبر سنة ١٩١٧ . لقد أمرت بسجني لكنني فررت من السجن بفضل من

كانت سلطته فوق سلطتك ، بل فوق سلطة القيصر ، بفضل راسبوتين العظيم . ورحلت عن بلاد يضرب فيها الناس بالسياط لانهم يحبون . لكنني بقيت أتحين الفرصة للانتقام . وقد وجدتها عند ما اندلعت نيران الثورة الشيوعية في الروسيا . لقد ساءك ان يحب جاكوبوفسكي الوضيع الاميرة الرفيعة المقام ، وفاتك أن الحشرة تعشق النجم احيانا . وجاكو بوفسكي الآن يهزأ بك وبأمثالك من الاشراف ، وهو يباهي بالأثر الذي تركه في وجهه سوطك اللعين . فمت كمداً بينما غريمك ينعم بالحياة الحلوة

« جاكوبوفسكي »

« كومسير الشعب في جبال الاورال »

* * *

فقرر فولكونسكي ان يدخل الدير

وهناك يقضي الراهب العاشق بقية أيامه ، بين الحاضر وما فيه من بؤس وآلام ، والماضي وما فيه من ذكريات

فهرس

للمؤلف

ابراهيم فى الميدان

مجموعة من الاقاصيص التاريخية تضم حوادث حروب الشام في عهد ابراهيم باشا بن محمد على باشا . أصدرتها دار الهلال

الضحايا

مجموعة من الأقاصيص التاريخية عن أروع حوادث التضحية

مها

قصة غرامية شرقية للمؤلف ، نظمها شعراً الدكتور احمد زكى ابو شادى

السلطان برقوق

قصة تاريخية تحوى أغرب الحوادث التى وقعت في نهاية حكم المماليك فى مصر (تصدر قريباً)